بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات في الأدب العربي (العصر الجاهلي)

د. وضاح حسن خضر الحديدي

كلية الإمام الأعظم/نينوى

الشعر الجاهلي :

الشعر الجاهلي هو الشعر العربي الذي قيل قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم واستمرت قرابة قرن ونصف من الزمان. وقد فصل بعض القدماء في مسألة أَوَّلية الشعر العربي فذهبوا إلى أن عمره يمتد بين القرن والقرنين قبل ظهور الإسلام على أكثر تقدير، إذ نجد الجاحظ يقرر أن عمر الشعر العربي قصير بالمقارنة مع عمر الإنسانية السحيق، فهو حديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله، وسهل الطريق إليه، امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومائة عام – وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام .وقد ضم دواوين عدد من الشعراء والشاعرات الذى وصلنا شعر بعضهم كاملا تقريبا ووصلتنا شذرات من شعر بعضهم ويتميز هذا الشعر بجزالة لفظه ومتانة تراكيبه واحتوائه على معلومات غنية عن البيئة الجاهلية بما فيها من حيوان وطير وجماد كما أنه عبر عن أحداث حياة العرب وتقاليدهم ومعاركهم المشهورة وأماكن معيشة قبائلهم وأسماء آبار مياههم وأسماء فرسانهم المشهورين ومحبوباتهم حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ((كان الشعر علم قوم لم يكن لديهم علم أصح منه)) واعتبر هذا الشعر سجلا لحياة الأمة العربية قبل ظهور الإسلام كما اعتمد عليه علماء اللغة في وضع قواعد النحو والاستشهاد على صحتها واعتمد عليه مفسرو القرآن في بيان معاني الكلمات وقد سُميّ هذا العصر بالجاهلي لما شاع فيه من الجهل، وليس المقصود بالجهل الذي هو ضد العلم بل الجهل الذي هو ضد الحلم .

كلمة أدب :

من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة. وقد اختلفت عليها معان متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم، وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين؛ سواء أكان شعرًا أم نثرًا.

في العصر الجاهلي (معنى الداعي إلى الطعام)

قال طرفة ابن العبد :

نحـن فـي المَشْـتاةِ نـدعو الجَفَلَـى لا تـــرى الآدبَ فينـــا يَنْتَقِـــرْ

ومن ذلك المأدُبة بمعنى الطعام الذي يدعى إليه الناس، واشتقوا من هذا المعنى أدُبَ يأدُب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها. وذهب(نالينو) إلى أنها استخدمت في الجاهلية بمعنى السنّة وسيرة الآباء مفترضًا أنها مقلوب دأب؛ فقد جمع العرب دأبًا على آداب كما جمعوا بئرًا على آبار، ورأيًا على آراء، ثم عادوا فتوهموا أن آدابًا جمع أدب؛ فدارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشيم وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم؛ شأنها في ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التي تستخدم أولًا في معنى حسي حقيقي، ثم تخرج منه إلى معنى ذهني مجازي.

في عصر صدر الإسلام (معنى تهذيبي خلقي)

ففي الحديث النبوي: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة الغنوي بنفس المعنى إذ يقول :

لا يمنـعُ النـاسُ منِّـي مـا أردتُ ولا أعطـيهم مـا أرادوا حسـن ذَا أَدبـا

وربما استُخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقي؛ غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن.

في عصر بني أمية (معنى خلقي تهذيبي ومعنى تعليمي)

ولا نمضي في عصر بني أمية حتى نجد الكلمة تدور في المعنى الخلقي التهذيبي، وتضيف إليه معنى ثانيًا جديدًا، وهو معنى تعليمي؛ فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالمؤدبين، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية؛ فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام، وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم.

في عصر بني العباس (تهذيبي وتعليمي)

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي؛ وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمي يتقابلان في استخدام الكلمة؛ فقد سمى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروبًا من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم "الأدب الصغير" و"الأدب الكبير". وبنفس هذا المعنى سمى أبو تمام المتوفى سنة(232هـ) الباب الثالث من ديوان الحماسة الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر، باسم باب الأدب. وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذي عقده البخاري المتوفى سنة(256هـ) في مؤلفه

المشهور في الحديث، والمعروف باسم الجامع الصحيح كما ينطبق على كتاب الأدب الذي صنفه ابن المعتز المتوفى سنة(296 هـ).

في القرنين الثاني والثالث وما تلاهما ضمن العصر العباسي

وفي هذه قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتبًا سموها كتب أدب مثل (البيان والتبيين) للجاحظ المتوفى سنة(255هـ) وهو يجمع ألوانًا من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة.

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل –فيما تدل عليه– على السنن التي ينبغي أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس، وألَّفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم المتوفى حوالي سنة 350هـ. وتوالت كتب مختلفة في أدب القاضي وأدب الوزير وأخرى في أدب الحديث وأدب الطعام وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك. على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار.

في العصر الحديث (معنى خاص ومعنى عام)

المعنى العام

وهو يقابل معنى كلمة Litterature الفرنسية التي يطلقها الفرنسيون على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه؛ سواء أكان علمًا أم فلسفة أم أدبًا خالصًا؛ فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدبًا.

المعنى الخاص

هو الأدب الخالص الذي لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعاني، بل يراد به أيضًا أن يكون جميلًا بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات.

معنى كلمة جاهلية

تُثير كلمة الجاهلية قضايا عديدة، فهي في الحقيقة مصطلح مستحدث أطلقه الإسلام على المرحلة السابقة للبعثة النبوية، فهو من هذه الناحية تكتنفه الدلالة الدينية، مما دفع بعض الباحثين إلى القول : إنَّ مصطلح الجاهلية مصطلح ديني له غاية محددة حين ظهر الإسلام ، وهي حث العرب على التخلص من كل نقيصة كانت لهم في عهد ما قبل الإسلام، بل تنفيرهم من ذلك وترغيبهم فيما جاء به الإسلام من خلق سوي أراده الله تعالى لهم وتشتمل كلمة الجاهلية على دلالات متعددة، فهي مرة تدل على الجهل الذي هو ضد العلم، ومن الجهل بالقراءة والكتابة، ولهذا ترجمت اللفظة في الإنكليزية **The Time Of Ignorance** وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين وبإتباع الوثنية والتعبد لغير الله، وذهب آخرون إلى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر .

الجهل في اللغة نقيض العلم ،والجهالة أنَّ تفعل فعلاً بغير العلم والمعروف في كلام العرب جهلت الشيء إذا لم تعرفه، و قد تدل على الجهل الذي هو ضد الخبرة، يقال هو يجهل ذلك أي لا يعرفه وتأتي بمعنى سَفِهَ أو خَرج بالغضب من عِقال الحلم وقد وردت لفظة جاهلية في القران الكريم في أكثر من مناسبة قال تعالى:﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّـهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (آل عمران أية 154) وقال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّـهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة 50) وقال تعالى :﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب 33)،وقال تعالى :﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (الفتح 26) .

يبدو من تفسير هذه الآيات، أن المقصود بهذه اللفظة ما كان قبل مجيء الإسلام، ففي تفسير الآية الأولى، يقول الطبري: "ظن الجاهلية" من أهل الشرك بالله، شكًّا في أمر الله، وتكذيبًا لنبيه صلى الله عليه وسلم، ومحسبة منهم أن الله خاذل نبيه، ومعمل عليه أهل الكفر به. ويقول

في الثانية يعني أحكام عبدة الأوثان، من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه. وفي الآية الثالثة يتعرض لبيان المقصود بالجاهلية الأولى، ويذكر فيها أقوالا كثيرة؛ منها: أنها الزمن بين آدم ونوح؛ ومنها أنها ما بين نوح وإدريس، ومنها أنها ما بين نوح وإبراهيم، ومنها أنها ما بين موسى وعيسى، ومنها أنها ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم مبيّنًا ما كان في كل فترة من هذه الفترات من المنهيات المقصودة في الآية الكريمة وفي الرابعة، يقول: "حمية الجاهلية حين جعل سهيل بن عمرو في قلبه الحمية فامتنع أن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين، بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب له: محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عامه ذلك: وقال: حمية الجاهلية، لأن الذي فعلوا من ذلك كان جميعه من أخلاق أهل الكفر، ولم يكن شيء منه مما أذن الله لهم به ولا أحد من رسله.

وقد توقف المستشرقون عند كلمة الجاهلية، فالمستشرق جولد زيهر يرى أنَّ الشواهد التي وردت في القرآن الكريم لكلمتي جاهل و جاهلية قلما تسمح للمرء بأنْ يحدد معنى الكلمتين تحديداً دقيقاً، على أنَّ الجاهل في شعور المسلمين والمفسرين هو ضد العالم، والجاهلية هي ضد الإسلام، وإذ لم يؤخذ بمعنى التسليم لله بل بمعنى معرفة الله ، وهو يرى أنَّ كلمة الجاهلية تعني عصر الجهل خلافاً للعصر اللاحق وهو عصر العلم ، ويميل رجيس بلاشير إلى أنَّ كلمة الجاهلية تضم جميع مظاهر العنف والوحشية والتعسف والزهو والتبجح التي حدَّ الإسلام منها، أو قضى عليها بغية إيجاد فضائل أكثر اتزانا وإنسانية ، ويرى المستشرق هيوارث أن ليس الغرض من الجاهلية النسبة إلى الجهالة المناقضة للعلم والمعرفة، وإنما الغرض منها السفاهة التي كانت مؤدية إلى الهمجية وانتشار الضلالة، وعبادة الأوثان والإسراف في القتل واستباحة الزنا والخمر وانتهاء هذا كله بتأريث العداوة وقيام الحروب وتفرق القبائل

وفي السنة ورد لفظ الجاهلية كثيرًا، من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم، لأبى ذر حين عير رجلًا بأمه: "إنك امرؤ فيك جاهلية". ومما ورد فيه من الأقوال المأثورة، قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة" وقول عائشة رضي الله عنها: "كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء"، وقولهم: "يا رسول الله كنا في جاهلية وشر"، فالمقصود في هذا كله، حال جاهلية، أو طريقة جاهلية، أو عادة جاهلية ونحو ذلك.

هل العرب على هذا كانوا قبل الإسلام جاهليين: في زمن جاهلي، وهم كانوا جاهلين، أي غير عالمين، أو غير متبعين ما يقتضيه العلم. وهل كان العرب قبل الإسلام حقا كذلك؟ إن هذا الرأي يفسر الجهل بما يناقض العلم، ويفسر الجاهل بغير العالم، أو بمن يفعل فعل غير العالم، ومقتضى هذا أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم علم البتة، أو كان لديهم علم ولكن سلوكهم كان على غير مقتضاه. والظاهر أن الاحتمال الثاني هو الأقرب للصواب، بل هو الصواب، فلم يكن العرب في ذلك الوقت جاهلين جهلًا ينافي العلم، فقد ثبت أنهم كانوا أهل ذكاء ودراية وخبرة، وكان فيهم أذهان صافية، ونظرات صادقة في الطبيعة وأحوال الإنسان بما لا يقل عن بعض نظرات الفلاسفة والباحثين والمفكرين. ويحكي لنا التاريخ كثيرًا عما كان في جزيرة العرب في ذلك الوقت، مما يدل على أنهم حينئذ لم يكونوا في جهل تام، بل كانوا على شيء من العلم والتفكير.فما يروى لهم من الشعر يدل على صفاء نفوسهم، وصدق عواطفهم، ورقة إحساساتهم ومشاعرهم، ووصول شعرهم إلينا وهو على هذه الحال من النضج والكمال يدل على أنهم كانوا قد قطعوا أشواطًا كبيرة، واستعملوا فيها عقولهم وتفكيرهم وأذواقهم في مجال التعبير والتصوير حتى وصلوا بفنهم إلى هذه الدرجة العليا من الدقة والعذوبة والجمال.ما تضمنه هذا الشعر، وما نسب إليهم من نثر: من معانٍ سامية، وأفكار ناضجة، وإشارات عديدة إلى شيء من العلم، وبخاصة في الطب يدل على عقلية ميالة إلى التفكير، قوية الملاحظة، وربما تكون هذه الإشارات من الأمور البدائية التي تعتمد على

المصادفة، أو تستنتج عن طريق التجربة، ولكن هذا، ولا شك، يدل على يقظتهم ووعيهم، وتنبههم إلى ما حولهم، وقدرتهم على استكشاف ما في الكائنات من أسرار، وذلك كله لا يصدر عن جاهل ولا يكون إلا عن طريق العقل الكامل والتفكير السليم.

وأسلوب القرآن الكريم وهو في أرقى درجات الفصاحة، وأقوى مراتب البيان، يدل على ما كان لهم من تقدم ورسوخ في ميادين البلاغة وروعة التعبير، فقد كانوا يفهمونه ويدركون مقاصده، وأكثروا من الجدل والمناقشة حوله، وذلك لا يتسنى لجاهل ليس لديه شيء من علم أو معرفة أو خبرة أو دراية.

ثم إن آثارهم العظيمة التي يتحدث عنها التاريخ من مدن فخمة، ومبان شاهقة، وأعمال هندسية وفنية، ونظم في المعيشة، والسياسة، والتجارة والحروب وأدوات القتال وغيرها، وما قيل عن معارفهم وتجاربهم وخبراتهم في نواحٍ متعددة تدل على تفكير عقلي سليم، وإدارك قوي صحيح.كل هذا ينفي عن العرب قبل الإسلام الجهل الذي ينافي العلم على الإطلاق، اللهم إلا إذا خصصنا هذا الجهل بناحية معينة، وهي الناحية الدينية، ففي هذه الحالة يكون وصف العرب قبل الإسلام بالجهل الديني وصفًا معقولًا، ومطابقًا للواقع. فالعرب قبل الإسلام كان فيهم المشركون والمجوس واليهود والنصارى وغيرهم، ولكنهم على العموم كانوا، قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم في ضلال ديني، وظلام دامس في العقيدة، وما كانوا يعرفون الدين الصحيح، فلما جاء الإسلام كشف لهم الحقيقة وهداهم إلى الصراط المستقيم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، فأزاح عنهم جهل العقيدة، وأسبغ عليهم نور العلم بحقيقة الله، والعلم بالعقيدة الصحيحة والدين القويم.هذا إذا فسرنا "الجاهل" الذي كان وصف العربي قبل الإسلام بغير العالم، أما إذا فسرناه بأنه من يفعل فعل غير العالم أي من يقول قولا، أو يعمل عملا يتنافي مع علمه، فإن هذا الوصف كذلك ينطبق على العربي، بوجه عام، قبل

البعثة، فما أثر لهم من أقوال، وحكم، ونصائح، وأعمال، يتنافى مع ما أثر عنهم من سلوك في كثير من مظاهر الحياة،

هذا هو ما يمكن أن يقال عن الجهل الذي وصم به العرب قبل الإسلام إذا فسر الجهل بأنه ضد العلم. ولكن إذا فسر هذا الجهل بأنه ضد الحلم كان كذلك تفسيرًا سليمًا صحيحًا مطابقًا تمامًا لحال العرب قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالحلم سيد الأخلاق، وتندرج تحته جميع الخصال الحميدة، وأرقى درجات السلوك الإنساني الحكيم. والجهل الذي ينافي الحلم معناه: السفه والحمق والتهور وعدم القدرة على ضبط النفس، وسرعة الانفعال، واشتداد ثورة الغضب، والاندفاع في غير تريث ولا تفكير، وهذه كلها كانت صفات منتشرة بين العرب قبل الإسلام، فكان العربي يثور لأتفه الأسباب ويشعل نار الحرب إذا توهم إساءة، أو ظن ظنًّا، ولو خطأ، دون أن يتريث، أو يتحرى الحقيقة. وقد ورد استعمال لفظة "الجهل" ومشتقاتها في هذا المعنى كثيرًا. فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان أية 63) .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم ((إذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل)) ويرى شوقي ضيف أنَّ كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز، وما ينطوي فيها من سلوك خلقي كريم فإنَّ العرب أطلقت الجهل على ما قابل الحلم.

قال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلـــنْ أحـــدٌ علينـــا فنجهـلُ فـوق جهـلِ الجـاهلينَ

وقال الفرزدق :

أحلامُنـــا تـــزِنُ الجبـــال رَزَانـــةً وتخالُنـــا جِنّـــاً إذا مـــا نجهـــلُ

وقال جرير:

أحلامُنـــا تَـــزنُ الجبـــال رَزَانـــةً ويفـــوقُ جاهِلنـــا فِعـــالِ الجُهّـــلِ

قال ابن الرومي :

بِجَهلٍ كَجهلِ السَّيفِ والسَّيفُ مُنْتضٍ وحلم كَحلمِ السَّيفِ والسَّيفُ مُغمدُ

فالجهل هنا يقصد به السفه والحمق والتهور وعدم ضبط النفس وفقدان سيطرة العقل، وعدم السلوك الحكيم.ولكن لا ينبغي أن يغيب عن البال أن ذلك كان حال القوم في مجموعهم، لأنه لم يكن كل واحد منهم موصوفًا بهذه الصفات التي تتنافى مع العقل والحكمة والاتزان والروية، فقد كان هناك أفراد اشتهروا بالعقل السديد والرأي الصائب، وبعد النظر، وحسن السلوك والسيرة، وكانت سمتهم الظاهرة الحكمة، حتى إن العرب اتخذوهم حكامًا، يستشيرونهم في شئونهم ويحكمونهم في أمورهم، ومن هؤلاء، الأفعى بن الأفعى الجرهمي، وهو الذي حكم بين بني مرار في ميراثهم، وأكثم بن صيفي حكيم تميم وعالمها بالأنساب، وحاجب بن زرارة التميمي كذلك، وكان على معرفة تامة بأخبار العرب وأحوالها وأنسابها، وهو من مشاهير الفصحاء والبلغاء، وكذلك الأقرع بن حابس التميمي، وهاشم بن عبد مناف القرشي، لم يقتصر الأمر على الرجال، بل كان من نساء الجاهلية من اشتهرن بالحكمة وحدة الذكاء وقوة العقل وسداد الرأي، ومنهن: ابنة الخُسّ الإيادية، وأختها جُمْعة، وصُحَر بنت لقمان، وخُصَيلة بنت عامر بن الظرب العدواني، وحذام بنت الريان، وهى التى قيل فيها:

إذا قالـــت حـــذام فصـــدقوها فـــإن القـــول مـــا قالـــت حـــذام

موطن الشعر الجاهلي

لقد نشأ الشعر الجاهلي وترعرع في البوادي من نجد والحجاز وما إليهما من شمالي الجزيرة العربية، وكانت البادية المدرسة التي ينشأ فيها الشعراء النابهون،ممن كانوا من أصل يمني رحل إلى الشمال كامرئ القيس الكندي وحاتم الطائي أو ممن كانوا من أصل عدناني نشأ فيها كالمهلهل وطرفة والأعشى من ربيعة ، وكالنابغة وزهير ولبيد من مضر. ولا عجب فالبادية مهبط الوحي الشعري ترهف الحس وتذكي الفؤاد؛ وللشعر فيها مقام رفيع ، فهو الترجمان عن أحاسيس النفس ، وهو لسان القبيلة وسجل أخبارها؛ بينما الحاضرة ، مثل مملكة الحيرة ومملكة غسان ، مالت إلى السياسة وبث النفوذ، فاتحة مجالا واسعا للثقافات الأجنبية والحضارات الغربية من رومية وفارسية وغيرهما تهتم لجمع الشعراء في بلاطها ولكنها لم تكن أرضا خصبة ينمو فيها الوحي والخيال.

نشأة الشعر الجاهلي

إن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت في ثنايا الزمن، وإن كنا نستطيع أن نظن ظنًّا أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم، يستعينون بها على حياتهم؛ فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وسادتهم، كما نشأ شعر الرثاء وهو في أصله تعويذات للميت حتي يطمئن في قبره، وفي أثناء ذلك كانوا يمجدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف؛ ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآله إلى موضوعات مستقلة . يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء في القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعاويذ الكهنة؛ فقد كانوا يرمون الرسول في بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر {وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} ورد عليهم القرآن

دعواهم الكاذبة مرارًا في مثل: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}** ومثل **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** . ويقول جل وعز في سورة الشعراء: **{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}** وبعد ذلك: **{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ، وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}** .

وواضح أن القرآن الكريم يحكي على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين الشعر والكهانة والسحر، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزل على الشعراء كما تنزل على الكهان، وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث في وعيه الشعر يسمى مسحلًا وأن شاعرًا كان يهاجيه يسمى عمرو بن قطن، كانت له تابعة من الجن اسمها جُهُنَّام .وظل بعض الشعراء في الإسلام يزعم أن له تابعًا من الجن، ويؤكد الأسطورة أبو النجم؛ فيزعم أن لكل شاعر شيطانًا إما أنثى وإما ذكرًا، يقول

إنـــي وكـــل شـــاعر مـــن البشـــر شـــيطانه أنثـــى وشـــيطاني ذكـــر

ولا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى؛ إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وهي تقاليد تلقي ستارًا صفيقًا بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى؛ فلا نكاد نعرف من ذلك شيئًا

وحاول ابن سلام أن يرفع جانبًا من هذا الستار فعقد فصلًا تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين وتأثر به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل، وهم عندهما جميعًا أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء في صياغة القصيدة العربية، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سننها طواهم الزمان. وفي ديوان امرئ القيس

عُوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئًا سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال.

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات؛ إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالبًا بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل، وكثيرًا ما يشبهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويمضون في تصويرها، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحًا أو هجاء وفخرًا أو عتابًا واعتذارًا أو رثاء وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها؛ فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنتهي به من رَوِيّ. وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة. الجاهلية منذ أقدم نصوصها، وحقًّا توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة، من ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

فهي من مخلع البسيط، وقلما يخلو بيت منها من حذف في بعض تفاعليه أو زيادة على نحو ما نرى في الشطر الأول من هذا واضطراب هذه القصائد في أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدي الرواة لم تعبث بها . وأن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعًا في الجاهلية؛ إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب، ولكن شيوعه لا يعني قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى إنما يعني أنه كان وزنًا شعبيًّا لا أقل ولا أكثر. وكان الشعراء الممتازون في الجاهلية لا ينظمون منه إنما ينظمون في الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج، وإن كان نظمهم في الثلاثة الأولى أكثر وأوسع.

الشعر الغنائي

أن الشعر الجاهي جميعه غنائي؛ فهو يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس؛ سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثي أو حين يعتذر ويعاتب أو حين يصف أي شيء مما ينبثُّ حوله في جزيرته ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون، فهم يروون أن المهلهل غنى في قصيدته:

طفلــة مــا ابنــة المحلَّــل بيضــا ء لعــوبٌ لذيــذة فــي العنــاقِ

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه. ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهاني يشير إلى أن شاعرًا جاهليًّا تغنى ببعض شعره مثل السُّلَيْك بن السُّلَكة وعلقمة بن عبدة الفحل والأعشى، وكان يوقِّع. شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج، ولعله من أجل ذلك سمي صنَّاجة العرب ، فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد، ومنه الحداء الذي كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم، وكان غناء شعبيًّا عامًّا.

ويقترن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالمزهر والدف وكانا من جلد وكالصنج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك.

منزلة الشعر الجاهلي

كان للشعر في الجاهلية عند العرب مكانة مرموقة، لذا قال ابن سلام الجمحي: ((وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به، به يأخذون وإليه يصيرون)). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه))

حياة العرب في العصر الجاهلي:

البيئة الجغرافية

شبه جزيرة العرب صحراوية في معظمها ، يسود أرضها الجفاف ، ولكن حين تحظى بمطر أوينبوع يتحول بعض أجزائها روضاتٍ بهيجة تسر الناظرين ،ولاشك أنّ الإنسان هو ابن الأرض ، تطبعهُ بِطِباعها ،وتلون أخلاقه ومزاجه وعاداته بلون تضاريسها ومناخها ، حتى لقد قال أحد علماء الاجتماع: صفوا لي طبيعة أرضٍ أصف لكم سكانها . ومن هنا فقد طبعت الصحراء أخلاق العرب بطباعها ، فتحلّوا منذ القدم بالشهامة والكرم والوفاء والنجدة وحب الحرية وإباء الضيم وكراهة الخسّة والصغّار.

الحياة الاجتماعية والأخلاقية:

كان عرب الجاهلية فريقين:أهل الحضر وكانوا قلّة،وأهل البادية ، وهم الكثرة. أما الحضر،فكانوا يعيشون في بيوت مبنية مستقرة ، ويعملون في التجارة وبعض الزراعة والصناعة ، ومن أولئك الحضر سكان مدن الحجاز ، وسكان مدن اليمن ، ومن أشهر حضر الجاهلية سكان مكة . وهم قريش وأحلافها. أما أهل البادية أو أهل الوَبَر ، فكانت حياتهم حياة ترحال وراء منابت العشب

لأنهم يعيشون على ما تنتجه أنعامهم. وكانت لعرب الجاهلية أخلاق كريمة ، تمّم الإسلام مكارمها وأيدها . ولهم أخلاق ذميمة أنكرها الإسلام وعمل على محوها. فمن أخلاقهم الكريمة: الوفاء والنجدة وحماية الذمار ومنها الجرأة والشجاعة والعفاف واحترام الجار والكرم . أما عاداتهم الذميمة فكان منها الغزو والنهب والسلب ، والعصبية الجاهلية ، ووأد البنات وشرب الخمر ، ولعب القمار وكل ما سجّله التاريخ من عادات العرب وتقاليدهم وأيامهم في حالتي سلمهم وحربهم تجده مدوّناً في أشعارهم ، فإذا إردت أن تعرف خلة أو عادة أو غير ذلك فعليك بالشعر فإنه ديوان العرب.

الحياة السياسية:

كان العرب من حيث حياتهم السياسية قسمين: قسماً لهم دويلة او ما شابه ، وهؤلاء كانوا يعيشون في مدن مثل مكة وإمارات مثل إمارة المناذرة وإمارة الغساسنة في شمال الجزيرة ، وإمارة كندة في وسطها ، وإمارة سبأ وحمير في جنوبها ، وهذه الإمارات تنافست في جذب الشعراء والخطباء ، كلٌ يريد تخليد ذكره وشيوع مآثره ، مما جعلهم يجزلون العطاء كلما أجاد الشعراء .

أما القسم الآخر من العرب فلم يكن لهم وضع سياسي ، وإنما كانوا قبائل من البدو الرحّل ، وتخضع كل قبيلة لشيخها الذي يكون عادةً فارساً وسيداً يتحلى بالمثل العليا من كرم ، وإقدام ونجدة ، وفصاحة ، وكان لكل قبيلة مقاتلوها ، وشعراؤها ، وخطباؤها الذين يلّبون حاجة قبائلهم في السلم والحرب.

الدين والمعتقدات :

كان معظم العرب وثنيين يعبدون الأصنام ، ومن أصنامهم هُبَل واللات والعزّى ومناة هذا إلى جانب أصنام خاصة يقتنونها في المنازل ، وكان أحدهم ربما صنع له صنماً من التمر أو العجوة فإذا جاع أكله ومن العرب من عَبد الشمس والقمر والنجوم ، ومنهم من عَبد النار. وكان قليل من العرب يعتنقون اليهودية والنصرانية ، لكنهم لم يكونوا على بصيرة بحقائق الدين ، على أن فئة من

العقلاء لم تعجبهم سخافات الوثنية فعدلوا عن الأصنام وعبدوا الله على ملّة إبراهيم عليه السلام وكانوا يسمّون الحنفاء ، وقد سجّل تاريخ الأدب كثيراً من شعر الحنفاء.

العلوم والمعارف :

كان للجاهليين ثقافات وعلوم ، لكنها محدودة تتناسب وبيئة الصحراء وعقليّة الأميين ، ومن أهم ثقافاتهم وعلومهم ما يلي:

أ- الأدب وفصاحة القول :وقد تحداهم القرآن الكريم في أخص خصائصهم وهي البلاغة ، فقال تعالى " : **((وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ))** 23 "سورة البقرة .

ب- الطب :فقد تداووا بالأعشاب والكيّ وربما أدخلوا العرافة والشعوذة في طبهم ، وقد أبطل الإسلام طب العرافة والشعوذة وأقرّ الدواء .

ج- القيافة :وهي إما قيافة أثر أو قيافة بشر . فبالأولى كانوا يستدلون بوقع القدم على صاحبها وبالثانية يعرفون نسب الرجل من صورة وجهه ، وكانوا يستغلونها في حوادث الثأر والانتقام.

د- علم الأنساب :وكان بمثابة علم التاريخ ، فقد كانت كل قبيلة تعرف نسبها وأنساب غيرها وتعرف الأيام والمعارك التي دارت بين العرب.

هـ- الكهانة والعرافة :وهذا العلمان أبطلهما الإسلام وتوعّد من يأتي كاهناً أو عرّافاً ؛ لأنهما يدعيان العلم بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

و- النجوم والرياح والأنواء والسحب :حيث كانوا يستعينون بها لمعرفة مواقعهم في السفر وتحديد الطرق ، ومعرفة موعد سقوط المطر وأوقات الزرع ، وتحديد موعد الرحيل . وقد أنكر الإسلام التنجيم وهو ادعاء علم الغيب بطريق النجوم.

أسواق العرب:

كان للعرب أسواق كثيرة في نجد والحجاز واليمن وحضرموت . وأشهر تلك الأسواق ثلاثة ، وكانوا يجتمعون فيها في أوقات معينة ، ويمتد اجتماعهم فيها من أول ذي القعدة ويستمر إلى أن يتوجهوا إلى الحج . وتلك الأسواق هي :سوق عكاظ ، وسوق مِجنّة ،وسوق ذي المجاز

ولم تكن تلك الأسواق للتجارة فحسب . بل كانت...

- للتحكيم في الخصومات ومفاداة الأسرى
- المفاخرة بالشعر والخطب.
- بث الآراء الإصلاحية من دينية وأخلاقية.

وكان من أشهر المحكمين في الشعر النابغة الذبياني فقد كانت تُنصب له خيمة من جلدٍ أحمر في عكاظ ، ويعرض عليه الشعراء أشعارهم. وكان لتلك الأسواق آثار عظيمة في اللغة العربية والأدب العربي ، وأهم تلك الآثار أنها عملت على تقريب لهجات القبائل ؛ لأن الجميع كانوا يتخاطبون بلغة واحدة هي اللغة القرشية . وبذلك قويت لهجة قريش حتى كادت تصبح لغة العرب جميعاً ، ثم لمّا نزل القرآن الكريم أصبحت لهجة قريش هي المعروفة الآن باللغة العربية الفصحى . كما أسهمت في ازدهار الأدب ؛ لأن الأدباء كانوا يحرصون على تجويد أدبهم لينالوا رضا الناس وإعجابهم.

اللغة العربية :

هذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو والتطور، وقد رأينا نماذج منها في نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند الجنوبي، وهي نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين، ونقوش أخرى كتبت بأبجدية الآراميين، وهي نقوش النبطيين؛ غير أنها جميعًا لا تصور هذا التكامل الذي انتهت إليه الفصحى، والذي تمثله نصوص العصر الجاهلي منذ أواخر

القرن الخامس الميلادي، وأوائل السادس؛ فهل تم لها ذلك التشكل النهائي مع ظهور الشعر الجاهلي أو أن ذلك تم في حقب أبعد منه لقد نشأت اللغة العربية المشتركة من مكة وأم القرى وبلد الله الحرام لعوامل دينية وسياسية واقتصادية .

العامل الديني :

فذلك لان بيئة مكة كانت منذ عهود سحيقة قبل الإسلام بيئة مقدسة يفد إليها العرب من كل فج ليحجوا إليها ويؤدي هذا بالطبع إلى اجتماع فريق كبير من العرب في هذه البقعة المباركة ويختلطون بأهلها ومن هذا الاختلاط ينشا ما يسمى باللغة المشتركة وليس الأمر اصطلاحا شعوريا بين القبائل على اختيار لغة معينة كلغة قريش مثلا لغة مشتركة وإنما ذلك الأمر لا شعوري كما يحدث للريفي الذي يحضر إلى المدينة ويعيش فيها مدة مثلا فانه سرعان ما يتأثر باللهجة المدنية قهرا عنه ودون شعور منه .

العامل السياسي:

هذه القبائل لم تفد إلى مكة للحج والعبادة فقط وإنما ليشهدوا كذلك تلك الأسواق التي تقام حول مكة للبيع والشراء وكانت تعقد في تلك الأسواق ندوات أدبية للخطباء والشعراء ويسمع فيها عيون الشعر الجيد القول كما كانت الحال في سوق عكاظ المشهورة التي كانت تدوم فيها الندوات ما يقرب من الشهرين وفي هذه الأسواق كان أهل مكة يختلطون بالوافدين فيسمعون منهم كما يسمع منهم هؤلاء هناك نبتت البذرة الأولى للغة المشتركة بين هؤلاء القبائل جميعا ونمت وازدهرت بتوالي وفود القبائل إلى هذه الأسواق وقد حملت هذه الوفود تلك اللغة المشتركة إلى مواطن قبائلها فانتشرت بين أنحاء الجزيرة العربية ولكنها لم تنتشر على ما نرجح إلا بين الخاصة فقط من أبناء القبائل المختلفة وهم أولئك الشعراء والخطباء وقد ازدهرت هذه اللغة نموا وازدهارا بنزول القران الكريم بها ولسنا نوافق القائلين بان نزول القران هو الذي وحد اللغة واوجد اللغة المشتركة لان هذه اللغة نمت

وازدهرت وكما قلنا قبل نزول القران الكريم بها ولذا تخيرها القران بنزوله ليفهمه جميع الناس في شتى القبائل العربية.

العامل الاقتصادي :

له أهميته في تكوين اللغة المشتركة فان أهل مكة كانوا تجارا ينتقلون بتجارتهم في أمكان مختلفة ويرتحلون بها إلى اليمن في الشتاء والى الشام في الصيف ولا يستقرون في مكان إلا بمقدار الزمن الذي يحدده لهم البيع والشراء والنشاط هذا النشاط التجاري الضخم قد أتاح لهم الغنى والثراء ومن ملك المال واحتضن الدين فقد حقق له سلطان سياسي قوي وكان أكثر حضارة وأقوى نفوذا من غيره ولهذا كله كانت اللهجة القرشية من أقوى اللهجات أثرا في تكوين اللغة العربية الفصحى وتتميز تلك اللغة الفصحى المشتركة بصفات معينة شانها في ذلك شان كل اللغة المشتركة....

رواية العرب للشعر الجاهلي

أولا الكتابة قبل الإسلام :

الكتابة لم تكن مجهولة بل كانت شائعة عند عرب الجاهلية شيوعًا يكفى لأن ينفي عنهم ما ألحقه بهم تاريخنا الأدبي من وصمة الجهل والأمية فقد عرف بعضهم الكتابة والقراءة ، بدليل الأشعار التي وصلت ألينا إذ نجد فيها تشبيهات بالكتابة فشبهوا الأطلال بالكتابة ونقوشها كقول امرئ القيس:

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني

ومثله قول المرقش الأكبر : ذاكرا القلم وهو أداة للكتابة

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرحال قصيدة له حين وقع أسيرًا في يد بعض العرب وقال سلامة بن جندل :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصليب فمطرق

هنا قصد بالكتاب الصحيفة ، وقد وردت أشعار فيها ذكر الورق والقرطاس واليك قول الحارث بن حلزة اليشكري :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس

المهارق: الورق وهنا شبه اثار الديار بمهارق الفرس ، اما طرفة فهو يشبه خد ناقته الشديد البياض بالقرطاس في قوله :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر كسبت اليماني قده لم يجرد

ويدور هذا التشبيه كثيرًا في أشعارهم؛ مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة، بل إن فريقًا منهم، كما يقول الرواة، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الأيادي وعدي بن زيد العبادي. ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة في الحواضر وخاصة في

مكة التاجرة، وفي السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين في بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، وكان من يكتبون بين يديه الوحي وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين في عقودهم ومعاملاتهم كثيرين؛ فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة في الجاهلية، ورويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغًا شعريًّا لقومه في بعض ما حزبه من الأمر.

هل اتخذ الشعراء الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ؟

والحق أنه ليس بين أيدينا أي دليل مادي على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد؛ ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية؛ فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم.

كيف وصل إلينا الشعر الجاهلي هناك مراحل متعاقبة مر بها الشعر الجاهلي وهي :

أولا مرحلة الإنشاد (الرواية الشفوية)

كان الشاعر يقف فينشد قصيدته، ويتلقاها عنه الناس ويروونها. ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية. وقد ظلت أزمانًا متتالية في الإسلام. وعن طريق هذه الرواية الشفوية وصل إلينا قدر كبير من القصائد ومن يرجع إلى شعرهم يجد شعراؤهم يذكرون دائمًا الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل؛ فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة، يقول المسيب بن علس :

لأهـــدين مـــع الريـــاح قصـــيدة منـــي مغلغلـــة إلـــى القعقـــاع

تـــرد الميـــاه فمـــا تـــزال غريبـــة فـــي القـــوم بـــين تمثـــل وســـماع

فقصيدته تنتشر في القبائل، ويرددها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها، فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيعة لنشره وذيوعه.

طبقات الرواة في العصر الجاهلي

أولا الرواة الشعراء: وهم الشعراء الذين يأخذ بعضهم عن بعض، فقد كان امرؤ القيس رواية أبي داود الأيادي ، وكان الأعشى راوية خاله المسيب بن علس، هي سلسلة تبدأ بأوس بن حجر التميمي؛ فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه وقد روى زهير بن أبي سلمى المزني لثلاثة من الشعراء وهم زوج أمه اوس بن حجر ، وطفيل الغنوي ، وخاله بشامة بن الغدير ، وروى عن زهير روايتان هما كعب ابنه والحطيئة، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هدبة بن خشرم العذري، وعن هدبة أخذ جميل صاحب بثينة، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزة وهي سلسلة امتدت من الجاهلية إلى الإسلام ، وهؤلاء الشعراء عملوا على تهذيب أشعارهم فكانوا يمعنون في التنقيح والتجويد فحذفوا وأضافوا وبدلوا حتى اخرجوا قصائدهم مسبوكة جميلة مشرقة كالعقد الجميل المعلق على صدر الغادة الجميلة لذا سموا بعبيد الشعر أو الشعراء المحككين . وهؤلاء الرواة الشعراء يرتبط بعضهم ببعض في اغلب الأحوال بصلة رحم .

ثانيا رواة الشاعر: لم يعرف من هذه الطبقة إلا راوية واحد أو اثنين كانا يرويان للأعشى في الجاهلية وهم عبيد الذي كان يصاحب الأعشى ويروي شعره وكان علما بالإبل وعن طريق عبيد عرف الرواة بعض أخبار الأعشى وذكر للأعشى رواية أخر اسمه يحيى بن متى ذكره صاحب الأغاني وهذه الطبقة لم تستمر إلى العصر الإسلامي عكس الطبقة الأولى .

ثالثا رواة القبيلة: وهم أفراد القبيلة الذين يرون شعر أبنائه ، كونه شعر يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم، وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معيرًا تغلب لكثرة تردادها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم، وكأن ليس لها شعر سواها.

ألهَى بني تغلب عن كل مكرمة — قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبدًا مذ كان أولهم — يا للرِّجال لشعر غير

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يشيعون شعر شعرائها؛ فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم في إشاعته؛ إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم؛ إذ لم يكن لهم شاغل سواه، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم، ومن ثم قال عمر بن الخطاب: " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" فهو كل علمهم وكل حياتهم.

ثانيا مرحلة التجميع :(أسباب دينية وقبلية وسياسية)

أ- الرواية في الإسلام (صدر الإسلام والخلافة الراشدة)

جاء الإسلام فانكبوا على تلاوة القرآن الكريم، ولكن لم ينسوا شعرهم أبدًا، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية؛ فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان بن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها، وكان كثيرًا ما يستنشد الصحابة الشعر، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت، قال الشريد بن سويد الثقفي: "استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: هيه، هيه، حتى أنشدته مائة قافية". وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي، وكان يتمثل به أحيانًا في خطابته كخطبته

المشهورة في يوم السقيفة، وكذلك كان عمربن الخطاب رضي الله عنه ، وقلما كان يترك وافدًا عليه من قبيلة دون أن يسأل عن بعض شعرائها، وفيه يقول ابن سلام: "كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر"

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعًا؛ فقد كانوا كثيرًا ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم، قال جابر بن سمرة: "جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثر من مائة مرة؛ فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية؛ فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم" ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام، وقد أخذت تظهر عوامل تشد من أزرها وتقوي من شأنها؛ فقد أخذت تنشأ منذ تدوين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب؛ إذ كانت تلعب دورًا مهم في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خطَّطوها مثل البصرة والكوفة. وكان بين العرب قديمًا من يشتهرون بمعرفة الأنساب؛ ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح لهؤلاء النسابين شأن خطير؛ إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم، وكثيرًا ما كانوا يسوقون لهم قطعًا من الشعر تحدد نسبهم، ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنخار بن أوس العذري .

نحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية حتى تشتعل العصبيات القبلية اشتعالًا لم تَخْبُ نيرانه حتى نهاية العصر الأموي، وكان الشعر الوقود الجزل لهذه العصبيات؛ فأخذت كل قبيلة تعني برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب العصبيات؛ فأخذت كل قبيلة تعنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها، ويتناقله أبناؤها؛ فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم. ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي؛ فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه .

ب- الرواية في العصر الأموي :

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة، فعملت على حفظ هذا التراث، بما كانت تروى منه، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء، وكانوا كثيرًا ما يسألون وفود القبائل التي تفد عليهم عن بعض شعرائها، وقد ينشدون بيتًا ويسألون عن صاحبه وقصيدته، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم. وكان أبناؤهم على غرارهم "وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبردون فيه بريدًا إلى العراق" يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه. وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يرويهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم.

ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يروى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين؛ مما جعله يستدعي عبيد بن شرية الجرهمي من صنعاء اليمن، ويتخذه سميرًا له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة، وهاله ما عنده من العلم بذلك؛ فاتخذ غلمانًا يقيدون في دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها في الجاهلية وأشعارها .

ومنذ وقت مبكر في صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعظة في المسجد الجامع. وكانوا كثيرًا ما ينثرون الأشعار الجاهلية التي تتصل بوعظهم في تضاعيف قصصم. وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعْنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضيين وما كان يجري على ألسنة شعرائهم. وفي أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبًا للناشئة يرويها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميت والطرماح. ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروي للجاهليين وينشد من شعرهم، وفي كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذه العلماء عن أمثال ذي الرمة والفرزدق وجرير.

لعل في كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواة لا يحصيهم العد حملوا الشعر الجاهلي إلى عصور التدوين؛ فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة. وبذلك أسلموه للأجيال التالية .

ج- رواة محترفون :

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامي ومطلع العصر العباسي حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملًا أساسيًّا لهم، وتختلط في هذه الطبقة أسماء عرب وموال، وأسماء قراء القرآن الكريم وغير قراء، وهم جميعًا حضريون، عاشوا غالبًا في البصرة والكوفة. ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة؛ بل كانوا يضيفون إليها كثيرًا من الأخبار عن الجاهلية وأيامها، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات في المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفي أثناء ذلك يشرحون لهم بضع الألفاظ الغريبة، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية.

من هم ابرز الرواة المحترفين وما هي مصادر رواياتهم ؟

أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحيانًا ليستقي من هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريديون. وقد أظهروا في علمهم مهارة منقطعة النظير؛ إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها.

مدارس الرواة المحترفين :

أولا مدرسة رواة الكوفة: لا يتشددون في روايتهم ، لذا تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير، قيل : "الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة؛ ولكن أكثره مصنوع ومنسوب ورأس رواة الكوفة هو حماد الراوية وكان متهما كثير الوضع .

ثانيا مدرسة رواة البصرة : كانوا متشددين في الرواية وان رواية البصرة في جملتها أوثق من رواة الكوفة ، وكان رأس رواة الكوفة أبو عمرو بن العلاء وكان أمينا،

ملاحظة

وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة في الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة؛ فبين الطرفين جميعًا متهمون، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحري.

1-أبو عمرو بن العلاء: كان أمينًا، وهو من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة، وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم، ولد سنة 70 للهجرة، وتوفي سنة 154 وقيل سنة 159 "وكان أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتًا له إلى قريب من السقف.. ثم إنه تقرأ أي تنسك فأحرقها" وهو إحراق لا يغير من الأمر شيئًا؛ فإن ما رواه حمله عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقدوتهم.

2- **حماد الراوية :** رأس رواة الكوفة فكان من الموالي، ولد سنة 95للهجرة، وتوفي سنة 156 للهجرة ويقال إنه: "كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص؛ فنقبَ ليلة على رجل، فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد، فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ ويروى عن الهيثم بن عدي أنه كان يقول: "ما رأيت رجلًا أعلم بكلام العرب من حماد" وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون اسم الرواية علمًا عليه .

3-خلف الأحمر: ولم يكن يقل عن حماد في معرفته بأشعار العرب وأخبارهم وكان متهما بالوضع أيضا وهو من رواة البصرة ؛ و كان شاعرًا مبرزًا، وكان بصيرًا بالشعر، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالي، ولد سنة 115 للهجرة وتوفي حوالي سنة 180 وفيه يقول ابن سلام: "اجتمع

أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لسانًا، وكنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرًا أو أنشدنا شعرًا ألا نسمعه من صاحبه غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التهمة الشديدة التي سلطت على روايته، وقد شهد هو نفسه بها .

4-المفضل الضبي : وهو من مدرسة رواة الكوفة اسمه محمد بن يعلى الضبي المتوفي 170للهجرة وهو عالم بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنسابها ، ويجمع رواة البصرة والكوفة على توثيقه ، وقد خلف مجموعة كبيرة من الأشعار أطلق عليها المفضليات التي لا يرقى إليها أدنى شك

5-الأصمعي: يقوم في البصرة مقام المفضل الضبي في الكوفة، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية. وأشعارها وأخبارها، ؛ فقد كان في الذروة من الثقة والأمانة، وهو عربي صليبة، ولد حوالي سنة 122 للهجرة وتوفي سنة 215 ، وفيه يقول ابن جني: "وهذا الأصمعي هو صَنَّاجة الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقلة، وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هي الأصمعيات وهي كالمفضليات ثقة ودقة، ورويت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة: دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة الفحل.

ويتضح مما تقدم أن رواية الشعر الجاهلي أحيطت بكثير من التحقيق والتمحيص، وأنه إن كان هناك رواة متهمون؛ فقد كان لهم العلماء الإثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفي والأصمعي البصري، وما مثَل الشعر الجاهلي في ذلك إلا مثل الحديث النبوي؛ فقد دخله هو الآخر وضع كثير، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه، وقدموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة، وكذلك الشأن في الشعر فقد دخله فساد كثير، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا -في مهارة بالغة- أن يميزوا صحيحه من زائفه؛ غير تاركين منفذًا في ذلك سواء في سند الرواة أو في المتن نفسه؛ بل إن ابن سلام ليقدمهم على علماء الحديث في هذا الباب، يقول: "حدثني يحيى بن سعد القطان

قال: رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعًا كثيرًا. ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع".

فينبغي أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات في بيئة الرواية اللغوية مزلقًا إلى الطعن في الشعر الجاهلي عامة، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقًّا، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه. أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعي صحيحة. وكانا يتحاريان تحريًّا شديدًا.

ثالثا مرحلة التدوين :

متى بدأ التدوين ؟

حين مصرت الأمصار، وراجعت العرب الأشعار، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية؛ فدوّن زياد بن أبيه كتابًا في المثالب، ودوّن عروة بن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه، ودون معاوية أخبار عبيد بن شرية أو بعبارة أدق أمر غلمانه بتدوينها، وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدون أحاديث الرسول عليه السلام وقد يكون في تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق في تدوين الشعر؛ فإن كثيرًا من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها، ولم تدون تدوينًا عامًّا إلا على رأس المائة، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلي وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها؛ فإنها لم تعمد إلى تدوين هذا الشعر إلا في حقبة متأخرة من عصر بني أمية. وقال بلاشير : منذ القرن الثاني الهجري وجدت نهضة عظيمة في الجمع والتدوين للنصوص الأدبية الجاهلية ، ولم يبدأ جمع الشعر العربي إلا في العصر الأموي وان هذا الجمع بلغ ذروته في العصر العباسي .

ما الذي دونه الرواة ؟

لم يكونوا يدونون حينئذ أشعار شعرائهم وحدها؛ بل كانوا يدونون معها أخبارهم.

ما هي أقدم المدونات :

ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدونات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد في أول تعلقه بالشعر من أنه نقب ليلة على رجل؛ فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل في طلبه، فقال في نفسه: "لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف فنظرت في كتابي قريش وثقيف ويُروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وأنه طلب لذلك من حماد وجناد الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان، ثم رد إليهما ما أخذه منهم وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلًا على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل لعلها هي التي أعدت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التي نعرفها لديوان هذيل ، ونمضي بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء، وكان يعتمد على الرواية، ولكنه كان يقيد إلى جانبها كثيرًا من الأشعار والأخبار حتى قالوا إن كتبه ملأت بيتًا له إلى قريب من السقف، ثم تقرَّأ "تنسك" فأحرقها كلها، يقول الجاحظ: "فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه، كانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية". وكان حماد على ما يظهر يعني بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة؛ بل لعله لم يكن يعني بالكتابة، إنما كتب عنه تلاميذه، يقول صاحب الفهرست: "لم يُروى لحماد كتاب، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده". ويروى للمفضل الضبي كتب صنفها، فيها أشعار وأخبار ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته؛ وإنما أنشدها تلاميذه فحملوها عنه.

ابرز الرواة الذين دونوا الشعر الجاهلي

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الرواة الأولين لم يدونوا ما رووه لطُلَّابهم، ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلي جميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشامًا هو الذي حمل مادة أخباره ودوَّنها في كتبه. ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتابًا في النحو؛ بل أملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور. وكانوا يتأثرون في ذلك برواة الحديث، وربما كانت الحاجة عندهم أمس؛ لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه من ينشده، ولذلك كانوا ينبذون في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحفي يأخذ عن الصحف، ولا يأخذ شفاهًا عن مشيخة العلماء باللغة والشعر. ومن ثم ضعَّفوا من يروي عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ، ولذلك ضعف ابن سلام رواية من يتداولون الشّعر القديم من كتاب إلى كتاب، يقول: "ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي".

والرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدوينًا منهجيًّا قائمًا على التوثيق والتجريح، وعلى رأسهم الأصمعي، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة. والى جانب الأصمعي نجد **(أبو عمرو الشيباني** 213هـ) يروى عنه انه جمع أشعار القبائل وكانت ما يقارب ثمانين قبيلة فضلا عن جمعه للدواوين مثل ديوان امرؤ القيس والحطيئة ولبيد والأعشى ودريد ابن الصمة. و(**ابن الاعربي** 255 هـ) قال عنه ابن عباس قد املى على الناس ما يحمل على الجبال ، و(**ابن السكيت** 245هـ)جمع دواوين كل من لبيد والخنساء وكثير من الشعراء فضلا عن أشعار اللصوص وأشعار هذيل ، و(**أبو الفرج الاصفهاني** 357هـ) كتب عشرات الكتب أهمها كتاب الأغاني ، وهناك غيرهم ...

آلية جمع وتدوين الأشعار :

1-السماع والتلقي من شيوخهم .

2- وكان هؤلاء الرواة المدونون لا يكتفون بالسماع من جلة الرواة السابقين فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعي نفسه وعن أبي عمرو الشيباني الذي يقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتيجتان من حبر، فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب .

3-وكان بعض الأعراب يفد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسد هذه الحاجة عند الرواة، والمهم أنهم لم يكتفوا بالاعتماد على ذاكرتهم صنيع الرواة من قبلهم؛ بل كانوا يدونون ما يسمعونه ويحتفظون به ويقرءون منه في مجالسهم وينقله عنهم طلابهم .

ما العوامل التي دفعت العرب إلى جمع أدبهم وتدوينه ؟

1- العصبية القبلية (الجاهلية)

كل قبيلة كانت تعنى بجمع نصوص شعراءها وتعمل على نشرها وإذاعتها لان ذلك في نظرها سجل حافل لمفاخر القوم وأمجادهم ، وكان هذا عاملا في دفع القوم إلى الاهتمام بالتدوين

2- إنشاء الدولة الجديدة

أن إنشاء دولة جديد يتطلب تنظيمات إدارية وسياسية واجتماعية وتخصيص رواتب الجنود والموظفين ورجال الدولة ، وهذا جعل العرب المتمسكون بعروبتهم يهتمون بالأنساب ومعرفة الأصول والفروع القريبة والبعيدة فرجعوا إلى الشعر القديم مستندهم الوحيد

3- **الخلافات السياسية**

حدثت في الدولة الإسلامية خلافات حادة ومعارك دامية فرقت المسلمين إلى شيع وأحزاب وأصبح لكل فريق أنصار وشعراء يساعدون الخلفاء والولاة في تثبيت حقهم في الحكم ، كل هذا دعا كل فرقة إلى التنقيب عن تراثها الخاص والحديث عن نفسها في الماضي ليدعم الحاضر وجمع الأدب القديم وتدوينه .

4- اتساع رقعة الدولة الإسلامية

امتد حكم العرب إلى أقاليم كثيرة خارج شبه الجزيرة العربية في إفريقيا واسيا وامتزجوا بسكان هذه البلاد الذين يتكلمون لغات مختلفة ، وهذا كان له اثر في اهتمام العرب الغالبين إلى جمع أدبهم وتدوينه ، ليفاخروا به الشعوب غير العربية المغلوبة ويعلموهم مفاخر وانتصارات أجدادهم الإبطال وتاريخهم العريق .

5- ميول الخلفاء والولاة والحكام للأدب

شاع جمع الأدب و تدوينه على يد الخلفاء العلماء فقد كان عند بعضهم حب شديد للأدب وكثيرا ما يسال الخليفة عن قطعة أدبية أو قصيدة شعرية يتوق إلى سماعها وهكذا عمل الخلفاء الراشدون وبخاصة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما . وفي عصر الدولة الأموية زاد اهتمام الخلفاء بالأدب . وكثيرا ما كانوا يرسلون في طلب عالم أو راوية أو شاعر لسؤاله عن خبر معين أو قصيدة شعرية ، فالرواة قاموا بمهمة كبيرة الأثر إذ حفظوا لنا هذا التراث الرائع عن طريق الرواية الشفهية التي كتب القدر أن تدون بعد زمن معين وتنتقل من جيل إلى جيل ، لتكون أمهات المصادر للأدباء والعلماء والباحثين .

ويلاحظ إزاء المؤرخين أن كثيرًا منهم لم يكن دقيقًا فيما يجمع من شعر، ولعل ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية أشهرهم في هذا الباب، وقد تصدى له ابن سلام في طبقاته، فقال: "وكان ممن أفسد الشعر هجَّنه وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق بن يسار، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد

مناف، وكان من علماء الناس بالسِّير. فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر أوتى به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرًا. فكتب السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط وأشعار النساء فضلًا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارًا كثيرة، وليس بشعر إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف، أفلا يرجع إلى نفسه، فيقول: من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالي يقول: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} أي لا بقية لهم وقال أيضًا: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى} وقال في عاد: {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} وقال: {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} وقال: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ}

وواضح أن هذه المنتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة؛ فقد ردها الرواة المحققون، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين كطه حسين ليشككوا في الشعر الجاهلي عامة، مع أن القدماء رفضوها وردوها، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف. وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يروى عن الجاهليين بل نحن نضيقها تضييقًا شديدًا، فلا نقبل إلا ما أورده الثقاة مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي، فجملة ما رووه وثيقٌ.

قضية الانتحال

قضية الانتحال في الشعر العربي من أبرز القضايا التي طرحت في كتب الأدب العربي، لا سيما فيما يتعلق بالشعر الجاهلي الذي دخله انتحال كثير، وقد تتابع الرواة الثقات بتحقيق وتمحيص ما جاء من تراث في الشعر الجاهلي ، فالشعر الجاهلي يثير معضلة تتجلى واضحة في تفاوت أساليب المقطوعات الشعرية والقصائد الجاهلية وتظهر أيضا في ترتيب الأبيات الشعرية واختلاف الروايات في مفرداتها وتراكيبها وصياغاتها وهذا من شأنه أن يثير الشك حول صحة الشعر من حيث نسبته إلى صاحبه أو إلى زمانه أو إلى مكانه .ولقد شاع استخدام مصطلح الانتحال ليدل على قضية الشك في الشعر الجاهلي ويُؤثر بعضهم استخدام **مصطلح النحل** ويحدده بأنه وضع قصيدة ما أو بيت من أبيات وإسناد ذلك لغير قائله ويذهب آخر إلى أن "معنى انتحله وتنحله ادعاه لنفسه ولغيره....ويقال نحل الشاعر قصيدته إذا نسبت إليه وهي لغيره وقد ميز الباحثون بين ثلاث مصطلحات وهي: النحل ،والانتحال والوضع . **فالوضع** هو أن ينظم الرجل الشعر ثم ينسبه إلى غيره لأسباب ودواع ، فهو الشعر الذي جرى نظمه في الإسلام و**الانتحال** هو ادعاء شعر ما ليس لك .**والنحل** أن ينسب الرجل شعر شاعر إلى شاعر آخر. ومن هنا يمكننا إيجاز **الانتحال** بأنه نسبة الشعر لغير قائله سواء أكان ذلك بنسبة شعر رجل إلى آخر أم أن يدعي الرجل شعر غيره لنفسه أم أن ينظم شعرا وينسبه لشخص شاعر أو غير شاعر سواء أكان له وجود تاريخي أم ليس له وجود تاريخي .

فالأدب الجاهلي أدب قديم، كان يلقى، وينشد، ويحفظ، ويروى عن طريق المشافهة، والروايات الشفهية، ولم يدون إلا بعد زمن طويل، كما مر الحديث عن ذلك بالتفصيل فيما سبق.وواضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير، وقد أشار إلى ذلك القدماء مرارًا وتكرارًا، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف وما وضعه الوُضَّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة، وبلغ من

حرصهم في هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما رُوي عن المتهمين أمثال حماد وخلف وكان الأصمعي خاصة لهم بالمرصاد، كما كان المفضل الضبي من قبله، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويمحصون في التراث. ومن أهمهم في هذا الجانب ابن سلام؛ فقد دون في كتابه "طبقات فحول الشعراء" كثيرًا من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التي ينتسب إليها، وأضاف إلى ذلك كثيرًا من ملاحظاته الشخصية .

قضية الانتحال عند القدماء (كتاب طبقات فحول الشعراء لأبن سلام)

وهذا الكتاب في الحقيقة هو أول كتاب أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي، وقد ردها إلى عاملين:

1-عامل القبائل

لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار؛ فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار. فالقبائل كانت تزيد في أشعارها وتروي على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه، وقد أشار ابن سلام مرارًا إلى ما زادته قريش في أشعار الشعراء؛ فهي تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم، وقد أضافت كثيرًا إلى شعر حسان ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك، مثل داود بن متمم بن نُويرة فقد استنشده أبو عبيدة شعر أبيه متمم، ولاحظ أنه لما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها وإذا كلامٌ دون كلام متمم، وإذا هو يحتذي على كلامه؛ فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها؛ فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله .ولعل في هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه القبائل، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه؛ إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر

ونظمه، ويسوق لنا بن سلام شكًّا في قصيدة أبي طالب التي روتها قريش في أشعارها والتي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى ذلك أنهم نظروا في شعر قريش فقبلوا منه ورفضوا فهم يفحصون ويحققون في شعر المدينة كما فحصوا وحققوا في شعر قريش وغيرها من القبائل.

2-وعامل الرواة الوضاعين

ويقدم ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلًا كثيرًا وتنسبانه إلى الجاهليين هما :

أ- **طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين،** ومثَّل لها بحماد ورأينا فيما مر بنا أشباهًا له في جَنَّاد وخلف الأحمر .

ب-**وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي؛** ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف، وهم رواة الأخبار والسير والقصص، من مثل ابن إسحاق راوي السيرة النبوية؛ إذ كانت تصنع له الأشعار ويدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ، منطقًا بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس. ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعًا؛ فلم يقبلوا شيئًا مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة، وكذلك لم يقبلوا شيئًا مما يرويه ابن إسحاق لا عن الأمم البائدة فحسب؛ بل عن عرب الجاهلية أنفسهم؛ إلا أن يجدوه عند رواة أثبات .

ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله، وفيه موثوق به، وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وقد يغلب المنتحل الموثوقَ به؛ ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي

عامة؛ وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق.

قضية الشك والانتحال عند المحدثين

أولا : المستشرقين (صموئيل مارجليوث) أنموذجا

لفتت هذه القضية –قضية انتحال الشعر الجاهلي– أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين وبدأ النظر فيها نولدكه سنة 1864 وتلاه آلوَرْد حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين: امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة؛ منتهيًا إلى أن عددًا قليلًا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة أن شكًّا لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها. وتابع كثير من المستشرقين آلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين، أمثال موير وباسيه وبروكلمان .

ما الأدلة التي استند اليها مارجليوث حينما شك في الشعر الجاهلي ؟

وكان مرجليوت أكثر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتب فيها مقالًا مفصلًا نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يوليو سنة 1925 عنوانه (أصول الشعر العربي)

1– الدليل الأول

يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثًا عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظته وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته، ويقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد أنه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجناد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض؛ ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان مستمرًا .

2- الدليل الثاني

يقول مارجليوث : إن هذا الشعر لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم؛ فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة؛ إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله .

3- الدليل الثالث

ينتقل مرجليوث إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة، وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب، ويقول: ولو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب.

4- الدليل الرابع

وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للمماليك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أي نشاط شعري فيها؛ فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه المماليك مثل الإسكيمو

الرد على مارجليوث

رد الدليل الأول

وقد بينا آنفًا بأدلة لا تُدْفع كيف أن سلسلة رواية الشعر الجاهلي لم تنقطع حتى عصر التدوين وكان هناك رواة شعراء ورواة قبيلة حملوا لنا الشعر عن طريق الشفاه ، اما الرواة الوضاعين فقد تصدى لهم رواة ثقات ورفضوا روايتهم للشعر الجاهلي كما ذكرنا ذلك في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

رد الدليل الثاني

ففي كتاب الأصنام لابن الكلبي من الشعر الجاهلي ما ينقض زعمه نقضًا، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية فنسلم بأنه موضوع، ووضعه ينحصر فيه، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية.

رد الدليل الثالث

وقد أسلفنا في غير هذا الموضع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية؛ فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم . أما أن الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الحميرية ؛ فهذا طبيعي لأنها ليست لغته، وقديمًا قال أبو عمرو بن العلاء: ما لسان حمير و اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة في الجاهلية نفسها، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة.

رد الدليل الرابع

ودحض المستشرق بروينلش هذا الدليل؛ لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير.

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب في دعواه؛ ولذلك هب كثير من المستشرقين يردون عليه، فكان ابرز هذه الردود المستشرق رد **لايل**،على مجمل الأدلة التي نادى بها مارجليوث في موضعين :

أولا : احتج عليه في مقدمته للمفضليات: بأن من وضعوا هذا الشعر على فرض التسليم بذلك كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه؛ إذ لا يمكن أن يحاكوا شيئًا لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة، وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه، وحقًّا دخله انتحال أمثال حماد وخلف، ولكن

وراء انتحالهم شعر صحيح، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفته الشخصية والأسلوبية المميزة .

ثانيا: في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص: فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُوِّنَ نهائيًا في العصر العباسي، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير؛ ولكن من يرجع إلى المعلقات مثلًا يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها والتي تثبت أنها لصاحبها، وأعاد ما قاله في المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجري تلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في نفس التقاليد، وأيضًا فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدم في عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح في جوهره .

ثانيا عند العرب (طه حسين) أنموذجا

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين؛ وجدنا مصطفى صادق الرافعي يعرض هذه القضية –قضية الانتحال في الشعر الجاهلي– عرضًا مفصلًا في كتابه "تاريخ آداب العرب الذي نشره في سنة 1911؛ ولكنه لا يتجاوز في عرضه –غالبًا– سَرْدَ ما لاحظه القدماء ونحن نحمد له استقصاءه لملاحظتهم كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية؛ فقد لاحظ ما دخل هذا الشعر من بعض الوضع، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفتهم التنبيه عليه.

أما طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة في كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه. ولم يلبث أن ألف مصنفه "في الأدب الجاهلي" الذي نشره في سنة 1927 وفيه بسط القول في القضية بسطًا أكثر سعة وتفصيلًا إذ زودها ببراهين جديدة، وقد خصص لها في مصنفه أربعة كتب، هي الكتاب الثاني والثالث والرابع والخامس.

1- الكتاب الثاني (دوافع الشك)

نظر الدكتور طه في هذا الشعر الجاهلي فرأى فيه أشياء رابته، فشك فيه، وانتهى إلى أن كثرته المطلقة ليست جاهلية وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام. وقد استند في شكه إلى الدوافع الآتي

أولا إن هذا الشعر لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية .

أ- الحياة الدينية

فرأى أن هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية. وإلا فأين تجد شيئًا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة؟ أو ليس عجيبًا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين؛ وأما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال. **الرد على هذه الدليل** إن قياس الشعر الجاهلي في هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوص، لأن القرآن كتاب ديني يريد أن يجمع العرب على الإسلام؛ فطبيعي أن يعرض لدياناتهم ويناقشها، ويبين ما فيها من ضلال، بخلاف الشعر، فإن شاعرًا لم يدع لدين جديد، ومع ذلك فإن في كتاب الأصنام لابن الكلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويرًا دقيقًا .

ب- الحياة العقلية وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة في الشعر المنسوب إليهم، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة، وكانوا في جمهورهم بدْوًا لم يتحولوا إلى طور فكري منظم فتظن قومًا يجادلون في هذه الأشياء جدالًا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين كلا! لم يكونوا جهالًا ولا أغبياء، ولا غلاظًا ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة . **الرد على هذا الدليل**

لقد مثلنا سابقا عن الحياة العقلية لدى العرب وما كان عندهم من علوم ومعارف ، فلم نجد الجاهلية كانت نقيض علم بل هي نقيض حلم .

ج- الحياة السياسية يرى أن العرب "كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، بل كانوا على اتصال قوي، قسمهم أحزابًا وفرقهم شيعًا. أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين: حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء؟ أليس في القرآن سورة تسمى "سورة الروم"؟ ... لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين. فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم. وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة: {لإِيلافِ قُرَيْشٍ، إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْف} وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة والفرس .**الرد على هذا الدليل** وهذا في الواقع لا يصدق على العرب جميعًا؛ إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التي كانت تنزل في بلاد الدولتين. ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم. ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هددهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلًا على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلًا

د- الحياة الاقتصادية ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأننا لا نظفر بشيء ذي غناء في شعرهم. يمثل لنا هذه الحياة بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين: طائفة الأغنياء المستأثرين بالثورة وطائفة الفقراء المعدمين، وليس في الشعر ما يصور ذلك كما يقول؛ إنما فيه أن العرب جميعًا أجواد كرام؛ على حين يلح القرآن الكريم في ذم البخل والبخلاء . **الرد على هذا الدليل** وهذا القياس أيضًا لا يستقيم لسبب بسيط، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء، وأيضًا فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا في مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم؛ فإنهم أكثروا

في هجائهم من ذكر البخل وشح النفس. ولا بد أن نلاحظ أن كثيرًا من القرآن نزل في قريش التاجرة التي بلغ كثير منها مبلغًا عظيمًا في الثراء والتي كان يشيع فيها الربا أضعافًا مضاعفة.

ثانيا اختلاف اللغة :

ويرى الدكتور طه حسين أن هذا الشعر "بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه كما أنه لا يصور لغتهم . ووقف طه حسين طويلًا إزاء لغة الشعر الجاهلي ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين في الجزيرة: لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية؛ بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعارًا بلغة الشماليين. **الرد** وحقًّا إن شعر من كانوا في أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين؛ فقد تعربوا في الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب. على أنه يطرد القياس فيتشكك في شعراء القبائل اليمنية التي هاجرت من مواطنها الأصلية في الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس. ومما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلي وتعربت؛ فهي ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية، وإنما هي شمالية.

ثالثا اختلاف اللهجات

وقد وقف عند لهجات الشماليين في الجاهلية، تلك التي تمثلها قراءات القرآن الكريم، ولاحظ أن الشعر الجاهلي لا يمثلها، واتخذ من ذلك مطعنًا في صحته . **الرد** وقد مر بنا في غير هذا الموضع أن لهجة قريش عمت في الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادي واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم، ينظمون فيها أشعارهم مرتفعين غالبًا عن لهجات قبائلهم المحلية؛ فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات في شعر الجاهليين، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلًا على أنه منتحل موضوع.

رابعا الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن والحديث

ونرى طه حسين يتشكك في شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية . **الرد** أن هذه الشواهد أبيات فردية واتهامها ينبغي أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلي عامة

خامسا الرواية الشفهية

وهو لا يتحدث عن هذا الأمر حديثًا مفصلًا كما صنع في الأمور الأربعة السابقة، وإنما اكتفى بأن يشير إليه إشارات عابرة لا يقف عندها طويلًا، وإن كان حديثه في جملته يتضمن أثر هذا الدافع الأخير وهو الرواية الشفهية في نفسه، ولعل أصرح جملة عن هذا الأمر قوله"وحسبي أن شعر أمية بن أبي الصلت لم يصل إلينا إلا من طريق الرواية والحفظ لأشك في صحته كما شككت في شعر امرئ القيس والأعشى وزهير ... **الرد** إن الرواية الشفوية كانت هي الوسيلة التي نقلت لنا الشعر الجاهلي فإذا كان هناك رواة منتحلون فكان أيضا رواة ثقات .

2-الكتاب الثالث (أسباب النحل)

يتحدث في هذا الكتاب عن أسباب نحل الشعر ويبسطها بسطًا معتمدًا على ملاحظات القدماء ونراه يردها إلى خمسة أمور هي السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة .

1- السياسة: وأراد بها العصبية القبلية فرآها تلعب دورًا واضحًا في شعر قريش والأنصار؛ إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعارًا كثيرة، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذي يهْجَى به الأنصار. وواضح أن هذا لم يكن غائبًا عن ابن سلام؛ فقد نص عليه وحذر منه كما أسلفنا كما حذر من أشعار وضعتها قريش على لسان حسان؛ على أن الأشعار جميعها التي وقف طه حسين عندها ليست جاهلية؛ وإنما هي إسلامية.

2-الدين: فيبين دوره في هذا النحل متشككًا في الأشعار التي يقال: إنها نظمت في الجاهلية إرهاصًا ببعثة الرسول، مما رواه ابن إسحاق واحتفظ به ابن هشام في سيرته، ومثله ما يضاف إلى

الجن والأمم القديمة البائدة. ومر بنا رفض ابن سلام لهذه الأشعار وما يماثلها. وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار، وكذلك ما أضيف إلى عدي بن زيد العبادي، ولم يكن القدماء في غفلة عن ذلك.

3- **القصص:** ونراه يتحدث عن القصص والقصاص وأثرهم في وضع الشعر، ومر بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحاق وأضرابه.

4- **الشعوبية** : ويعرض للشعوبية وما يمكن أن تكون قد نحَلت الجاهليين من أشعار، لتثبت على لسانهم مثالبهم التي تدعيها، كما تثبت ثناءهم على الأعاجم. وقد تشكك في هذا الشعر الكثير الذي يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين في مصنفه الحيوان ليدل على اتساع معرفتهم في هذا العلم: علم الحيوان، عصبية لهم، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ؛ فهو نفسه ينفي عنهم العلم الدقيق بالحيوان؛ إذ يقول: إن معارفهم فيه معارف أولية، وإنه إنما دار في أشعارهم لأنه كان مبثوثًا تحت أعينهم وأبصارهم في ديارهم.

5- **الرواة الوضاعين** ويختم هذا الكتاب بالوقوف عند الوضاعين من الرواة أمثال حماد وخلف، ومرَّ بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد. ومعنى ذلك كله أنه في هذا الكتاب إنما يردد ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا يريد أن يتسع به لنقض الشعر الجاهلي جميعه، وهي إنما تنقض جوانب منه، وينبغي أن نقف عندها، وأن لا نذهب مذهب التعميم؛ فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلي من سياج قوي، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول.

3- الكتاب الرابع (الدراسة التطبيقية)

ويمضي طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الرابع، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال في شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعة ويبدأ في دراسته بامرئ القيس ويتشكك في شعره؛ لأنه يمني وشعره

قرشي اللغة، ثم هو شعر مضطرب ركيك. ومر بنا أنه كان يمني الجنس؛ ولكنه كان قرشي اللغة أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير؛ فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يُروى عن الأصمعي من أنه قال: "كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نُتَفًا سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك في شعره، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد وشك في شعر عبيد بن الأبرص، وأسلفنا أن ابن سلام لم يكن يعرف له سوى معلقته "أقفر من أهله ملحوب وكان يقول: إن شعره مضطرب ذاهب. ومضى على هذا النحو يشك في شعر عمرو ابن قميئة ومهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمدًا على الأحكام الذاتية، ولو أنه استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيرًا في تحقيق أشعارهم جميعًا.

5-الكتاب الخامس

وننتقل مع طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الخامس، وهو خاص بشعراء مضر؛ فنراه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضريون وشعر مضري؛ غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلًا: "لكنا لا نشك أيضًا في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته، ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جدًّا ولا يكاد يمثل شيئًا، وهذا المقدار القليل الذي بقي لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف والنحل، حتى أصبح من العسير جدًّا إن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصفيته . ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفي في الحكم على الشعر المضري بالسند ومن يحمله من الرواة، أو بالغرابة والسهولة، ذاهبًا إلى أن الباحث في هذا الشعر ينبغي أن يحكم فيه مقياسًا مركبًا من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء بحيث يكوِّنون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التي تتألف منه ومن زهير وابنه كعب والحطيئة، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها وسلامته من الوضع والانتحال. وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة في الشعر

الجاهلي؛ فقد رجع أخيرًا يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه؛ على أننا لا نسلم له بطرد هذا المقياس في تلك المدرسة نفسها؛ فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر ابنه شُرَيْح واختلف الرواة في بعض ما نسب إليه من شعر هل هو له أو لعبيد ابن الأبرص الأسدي وسنرى في درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية الكوفيين لديوانه؛ فقد حملت زيادات كثيرة، شك القدماء في أطراف منها، ونفس الرواية البصرية سنرفض قطعًا وأشعارًا منها؛ رغم أنها جاءتنا عن الأصمعي بل سنرى الأصمعي نفسه يشك في ثلاث قصائد مثبتة في روايته.

نقد منهج كتاب(في الشعر الجاهلي) وطريقته :

1- فقد أعلن الدكتور منهجه في وضوح حين قال: "أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه "ديكارت" للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث". فقام بعضهم ينكر عليه فهم هذا المنهج من أساسه، ويرد عليه في صفحات طويلة، فذهب إلى أن منهج ديكارت لم يكن منهج شك للشك ذاته، وإنما يتخذ الشك وسيلة لليقين .

2- أنكر طه حسين على القدماء رواياتهم المختلفة لكنه مع ذلك يبين احكامه العلمية على رواياتهم وهو تناقض وقع فيه .

3- عابوا عليه مجافته الطريقة العلمية في جمع الحقائق والاستدلال بها ، وبالأخص استشهاداته المبتورة بالأقوال وتناوله المسيء إلى كثير من العلماء القدماء .

4- أغار على كتب عربية وغربية نظمها في خيط من التشكيك ، ليخرج كتابه هذا مثل اغارته على كتاب الرافعي ، ومقالة مارجليوث .

والحق أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير؛ غير أن ذلك لم يكن غائبًا عن القدماء؛ فقد عرضوه على نقد شديد، تناولوا به رواته من جهة وصيغه وألفاظه من جهة ثانية، أو بعبارة أخرى عرضوه

على نقد داخلي وخارجي دقيق. ومعنى ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت؛ فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه؛ إنما نشك حقًّا فيما يشك فيه القدماء ونرفضه، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد فحري أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض ما رووه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن؛ كأن يروى لشاعر شعر لا يتصل بظروفه التاريخية، أو تجري فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته، أو يضاف إليه شعر إسلامي النزعة، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسًا.

مصادر الشعر الجاهلي:

أولا : المعلقات

وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين؛ وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذًا من كلمة العلق بمعنى النفيس، ويقال: إن أول من رواها مجموعة في ديوان خاص بها حماد الرواية وهي عنده سبع: لامرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة. ونراها عند المفضل الضبي سبعًا أيضًا؛ غير أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث بن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما الأعشى والنابغة2، وربما أضاف حماد الحارث في مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبي؛ لأن ولاءه كان في بكر؛ على أننا لا نمضي في عصر التبريزي حتى نجده يجعلها في شرحه لها عشرًا جامعًا بين الروايتين ومضيفًا قصيدة عبيد بن الأبرص: "أقفر من أهله ملحوب". وقد عني الشراح بهذه المجموعة؛ فشرحوها مرارًا، وطبع من شروحهم شرح الزوزني المتوفى سنة 486هـ. وقد كتبه على رواية حماد، ثم شرح التبريزي المتوفى سنة 502. وأكبر الظن أن حمادًا لم

يأخذ حريته كاملة في قصائد مجموعته؛ فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب؛ على أنه ينبغي مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة.

ثانيا : المفضليات

المفضليات نسبة إلى جامعها المفضل الضبي راوي الكوفة الثقة، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأنباري، وهي مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ، وفي مقدمة الشرح سند كامل لها يرفعه ابن الأنباري إلى ابن الأعرابي تلميذ المفضل وربيبه، ويقول ابن النديم: "هي مائة وثمانية وعشرون قصيدة. وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر، بحسب الرواية عن المفضل، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي ، ومعنى ذلك أن في أيدينا أوثق نسخة للمفضليات. وتعلَّق عبد السلام هارون وأحمد شاكر ناشراها في دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألقاها المفضل على المهدي، وزاد فيها الأصمعي أربعين، ثم زاد البقية بعض تلاميذه. وربما جاء الأخفش اللبس من أن الأصمعيات تلتقي معها في تسع عشرة قصيدة، وأيضًا فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بتثقيف ابنه المهدي بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة؛ فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقي مع الأصمعيات في بعض القصائد ظن أن الأصمعي وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات ولو أنه اطلع على رواية ابن الأعرابي خصم الأصمعي لزايله هذا الوهم؛ وكأن المفضل اختار أولًا ثمانين ألقاها على المهدي، ثم زادها إلى مائة وثمانية وعشرين كما جاءت في رواية تلميذه ابن الأعرابي.

وهي موزعة على سبع وستين شاعرًا منهم سبع وأربعون جاهليًّا وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلزة وعلقمة بن عبدة والشنفرى وبشر بن أبي حازم وتأبط شرًّا وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري والمسيب وبينهم امرأة من بني حنيفة ومجهول من اليهود

ومسيحيان هما عبد المسيح بن عسلة الشيباني وتتضح مسيحيته في اسمه، ثم جابر بن حني التغلبي، ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلي سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليده وصفًا دقيقًا؛ فقد مثلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث.

ثالثا الاصمعيات

الأصمعيات نسبة إلى العالم اللغوي والراوية الثقة أبو سعيد عبد الملك بن قريب الاصمعي 216هـ وهي مجموعة من القصائد والمقطعات اختارها لتأديب الأمين بن هارون الرشيد ، وقد نشرها ألوارد عن نسخة سقيمة في برلين سنة 1902 وأعاد نشرها عبد السلام هارون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي نقلها عن أصل قديم وهي نشرة علمية جيدة، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين، وهي موزعة على 71 شاعرًا منهم نحو 40 جاهليًّا على رأسهم امرؤ القيس والحارث بن عباد ودريد بن الصِّمَّة وأبو دؤاد الإيادي وذو الإصبع العُدواني وسلامة بن جندل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الحطيم، وبينهم يهوديان هما سعية بن الغريض والسموأل. وهذه المجموعة كسابقتها في الثقة بها وعلو درجتها، وقد جاء فيها أيضًا كثير من الكلمات المهجورة التي لم تثبتها المعاجم؛ غير أنها لم تلعب الدور الذي لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشراح، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات، وأيضًا فإن الأصمعي لم يرو كثيرًا من القصائد كاملة؛ بل اكتفى بمختارات منها.

رابعا جمهرة اشعار العرب

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين؛ غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثاني جيلين أو ثلاثة؛ فالوسائط بينه وبينهم في السند غير بعيدة؛ ولذلك نظن أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع، وقد ذكره ابن رشيق المتوفى سنة 463 للهجرة في

كتابه العمدة3 كما ذكره السيوطي في المزهر والبغدادي في الخزانة5. والجمهرة تضم تسعًا وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام في كل قسم سبع قصائد، والقسم الأول خاص بالمعلقات، وقد أخذ فيها برواية الضبي، فأسقط منها معلقتي الحارث وعنترة ووضع مكانهما معلقتي الأعشى والنابغة. ويلى هذا القسم المجمهرات وهي لعبيد بن الأبرص وعدي بن زيد وبشر بن أبي خازم وأمية بن أبي الصلت وخداش بن زهير والنمر بن تولب وعنترة وألحقت قصيدته في النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلي ذلك المنتقيات أي المختارات، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين، وربما قُصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب، ثم عيون المراثي، ثم المشوبات وهي لمخضرمين شابهم الكفر والإسلام، ثم الملحمات وجميعها لإسلاميين. وهي مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية؛ فلا بد في الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة. وطُبعت الجمهرة مرارًا في بيروت والقاهرة.

خامسا مختارات ابن الشجري

ومثل هذه المجموعة في ضعف سندها مختارات ابن الشجري المتوفى سنة 542 للهجرة، وهي مختارات من شعر جاهلي وإسلامي، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم من في القسم الأول الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادي والمتلمس، أما القسم الثاني فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي خازم وعبيد بن الأبرص، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة. وطبعت هذه المجموعة بالقاهرة.

سادسا كتب الحماسة

وتدخل في هذه المختارات دواوين الحماسة، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية؛ إذ لا يعرفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبي تمام المتوفى حوالي سنة 232 للهجرة وقد شُرح مرارًا ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوقي وشرح التبريزي وهو يفيض بالإشارات التاريخية. ونص

المرزوقي على أن أبا تمام أصلح في الشعر الذي رواه، يقول: "إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد في لفظة تشينه؛ فيجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها في نقده، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم؛ فقابل ما في اختياره بها وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها، وهي مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين، وقلما رَوى فيها قصائد كاملة. وتلي هذه الحماسة في الأهمية حماسة البحتري المتوفى سنة 284هـ وهي مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين بابًا، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية، ولم يعن القدمان بشرحها. ولابن الشجري صاحب المختارات حماسة طبعت في حيدر أباد، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي. وطبعت أخيرًا حماسة الخالديين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدي المتوفى350هـ ، ومحمد الخالدي 380هـ .

سادسا الدواوين الشعرية للشعراء الجاهليين

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة الجاهلين: امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها ألوارد؛ إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعي التي احتفظ بها شرح الشنتمري؛ بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منحولات، ولا تزال في حاجة إلى نشر شرح الشنتمري المتوفى سنة 476 وقد استخرج، منه مصطفى السقا شرحه على تلك الدواوين والتزم روايته في المجموعة التي سماها باسم مختار الشعر الجاهلي. طبع ديوان امرئ القيس طبعات مختلفة لعل أهما الطبعة الأخيرة بدار المعارف، وقد جمع فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة. ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعي البصرية التي يحتفظ بها الشنتمري في شرحه. وطبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر؛ إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال في حاجة إلى نشرة علمية

جيدة. وقد نشر لايل ديواني عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر.

سابعا دواوين القبائل

أما دواوين القبائل التي جمع منها الشيباني نيفًا وثمانين وعُني السكري بكثير منها ففقدت في الطريق ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت في خمس مجموعات، أربع منها في أوروبا وهي من صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، طبعت أولاها في لندن سنة 1854 بتحقيق كوزجارتن، وطبعت الثانية في برلين سنة 1887 بتحقيق فلهاوزن، وطبعت الثالثة وهي خاصة بديوان أبي ذؤيب في هانوفر سنة 1926 بتحقيق يوسف هل، وفي سنة 1933 نشر القطعة الرابعة في ليبزج، وهي تتداخل مع القطعة الخامسة التي نشرتها دار الكتب المصرية، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكري بنسخة أخرى مختصرة منها؛ ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية. وهذه القطع التي وصلتنا من صنعة السكري غاية في النفاسة لا لأنه يضمنها أخبارًا وشروحًا فحسب؛ بل لأنه يقفنا وقوفًا دقيقًا على مصادره؛ إذ يذكر دائمًا الإسناد في القصيدة وألفاظها وأبياتها مثبتًا ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعي والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني .

ثامنا شرح النقائض لأبي عبيدة

وهي الكتب الجيدة التي تشتمل على شعر جاهلي كثير ؛ فقد أنشد فيه كثيرًا من الشعر الذي قيل في أيام العرب .

تاسعا طبقات فحول الشعراء لابن سلام

ومن الكتب الجيدة أيضًا طبقات الشعراء لابن سلام، ومر بنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلي صحيحه ومصنوعة.

عاشرا الشعر والشعراء لابن قتيبة

أما هذا الكتاب فربما كان خير ما فيه مقدمته التي يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة، وأما بعد ذلك فالكتاب فقير في تراجمه وما يطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها. وهناك كتبُ أدب ألفت في البصرة مثل **البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد** ومن الخير أن نرد ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة، حتى نكون أكثر طمأنينة. ويجري مجراها ما في **أمالي اليزيدي ومجالس ثعلب** من أشعار وينبغي أن نتلقى كتب الأدب البغدادية مثل **عيون الأخبار لابن قتيبة** بحذر، **مثلها أمالي أبي علي القالي**؛ ففيها انتحال كثير. ومن المختصرات التي تفيد في المراجعة كتاب **المؤتلف والمختلف للآمدي ومعجم الشعراء للمرزباني وكتابه الموشَّح** نفيس في التعرف على كثير مما وضع على الشعراء الجاهليين. وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد **مثل نقد الشعر لقدامة والصناعتين لأبي هلال العسكري والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني والعمدة لابن رشيق**، ومثلها مثل الشواهد المبثوثة في كتب اللغة والنحو ينبغي التوثق منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة. أما ما جاء في كتب السير والأخبار والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي فينبغي أن نرفضه إلا أن تدعمه روايات صحيحة.

من الكتب المتأخرة التي احتفظت ببعض ما فقد من الروايات والمصنفات القديمة **خزانة الأدب للبغدادي المتوفى سنة 1093 للهجرة**، وهو شرح على شواهد الرضي شارح كتاب الكافية لابن الحاجب، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة. ومثله في هذا الاتجاه شرح السيوطي على شواهد المغني لابن هشام.

تقسيم القدماء للأغراض الشعرية

أولا أبو تمام(الحماسة)

لعل أقدم من حاول تقسيم الشعر العربي جاهليًّا وغير جاهلي إلى موضوعات ألف فيها ديوانًا هو أبو تمام المتوفى حوالي سنة 232 للهجرة؛ فقد نظمه في عشرة موضوعات، هي الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسب، والهجاء، والأضياف ومعهم المديح، والصفات، والسير، والنعاس والملح، ومذمة النساء. وهي موضوعات يتداخل بعضها في بعض فالحديث عن الأضياف؛ إما أن يدخل في المديح أو في الحماس والفخر، والسير والنعاس يدخلان في الصفات، كما تدخل مذمة النساء في الهجاء، أما الملح فغير واضحة الدلالة. وجاء في باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبي؛ غير أنه أنشد فيه أبياتًا في وصف الخمر، وأغفل إغفالًا تامًّا باب العتاب والاعتذار.

ثانيا قدامة بن جعفر(نقد الشعر)

ووزَّع قدامة في كتابة نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات، هي المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقي أن يرد الشعر إلى بابين أو موضوعين هما المدح والهجاء؛ فالنسيب مديح، وكذلك المراثي، ومضى يعين المعاني التي يدور حولها المديح، وهي في رأيه الفضائل النفسية، ونجد نفس المحاولة في تضييق موضوعات الشعر واضحة في كتاب نقد النثر؛ فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو، ويدخل في المديح المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة ويدخل في الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب. كما يدخل في الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطَّرْد وصنعة الخمر والمجون.

ثالثا ابن رشيق القيرواني(العمدة في صناعة الشعر ونقده)

جعل ابن رشيق موضوعات الشعر في كتابه العمدة تسعة، وهي النسيب، والمديح، والافتخار والرثاء، والاقتضاء والاستنجاز، والعتاب، والوعيد والإنذار، والهجاء، والاعتذار، ومن السهل أن يرد موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح، والوعيد والإنذار إلى الهجاء، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار، وأيضًا فإنه نسي موضوع الوصف. ويقول أبو هلال العسكري: "وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة: المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثي، حتى زاد النابغة فيها قسمًا سادسًا وهو الاعتذار فأحسن فيه وهو تقسيم جيد؛ غير أنه نسي باب الحماسة، وهو أكثر موضوعات الشعر دورانًا على لسانهم.

أغـراض الشعـــر الجاهلـــي:

اولا الهجاء:

دار الهجاء على كل ما يناقض مثلهم التي صورناهم في غير هذا الموضع، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهي تعني عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر، فالشاعر يسلب القبيلة وأشرافها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهي لا تكرم الجار ولا تحميه، وهي تفر في الحروب وتقعد عن الأخذ بثأرها. ولا يكتفي الشعراء الهجاءون بذلك؛ بل يتعرضون لمخازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام .

وفي أخبار الجاهلية أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حلة خاصة، ولعلها كحلل الكهان، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شقي رأسه وانتعل نعلًا واحدة ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم في الحج، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء

دعائه لربه أو لأربابه، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر.

فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقْرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائرًا بينهم؛ غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلًا بينها إبل لشاعر، وتعرض لهم يتوعدهم بالهجاء اضطروا اضطرارًا إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله. يروي الرواة أن الحارث بن ورقاء الأسدي أغار على عشيرة زهير، واستاق فيما استاق إبلًا له وغلامًا، فنظم زهير أبياتًا يتوعده بالهجاء المقذع، يقول فيها:

ليأتينـــك منـــي منطـــق قـــذع بـاق كمـا دنـس القبطيـة الـودك

ففزع الحارث ورد عليه ما سلبه منه، وواضح أن زهيرًا يستخدم في وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس؛ فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرجس والإثم. ويروى أن رجلًا يسمى زرعة بن ثوب من بني عبد الله بن غطفان خدع غلامًا من عشيرة مزرد بن ضرار الشاعر يسمى خالدًا كان يرعى إبلًا لأبويه فاشتراها منه بغنم واستاقها، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل؛ فقال أبوه: هلكت والله وأهلكتنا، وركب إلى مزرّد وقص عليه القصة؛ فقال مزرّد: أنا ضامن لك أن تُرَدّ علينا بأعيانها، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زرعة، ويطلب إليه أن يرد الإبل، ونراه يعوذها بهجائه؛ فهي إن لم ترد ستكون نارًا تأتي على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الجرب والأمراض المستعصية، يقول

فيـــا آل ثـــوبٍ إنمـــا ذَوْدِ خالـــد كنـار اللظـى لا خيـر فـي ذود خالـد
بهـــن دُروءٌ مـــن نحـــاز وغُـــدَّةٌ لهـــا ذربـــات كالثُّـــدِيّ النواهِـــد

جَــرِبْنَ فمـــا يهنـــأنَ إلا بغَلْقـــةٍ عطـــين وأبـــوال النســـاء القواعـــدِ

وقد تحولوا يصبون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائرهم؛ فلم يسلم منها أحد من أشرافهم وفي السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه بأهاجيهم في قريش، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت، وقد أخذ في هجاء القرشيين: لشعرك أشد عليهم من وقع النَّبْل" وفي ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء في نفوس العرب؛ فقد كان سلاحًا لا يقل عن أسلحتهم

في القتال؛ ولذلك قرنه عبد قيَس بن خفاف البرجمي إلى ما يلقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع، يقول

فأصـــبحتُ أعـــددتُ للنائبـــا ت عِرْضًـــا بريئًـــا وعضـــبًا صَـــقيلا
ووقـــع لســـان كحـــد السِّـــنانِ ورُمحًـــا طويـــل القنـــاة عَسُـــولا
وســـابغة مـــن جيـــاد الـــدروع تســـمع للســـيف فيهـــا صَـــليلا
كمـــاء الغـــدير زفتـــه الـــدبور يجـــر المـــدحج منهـــا فضـــولا

فاللسان كان يَنْكأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرماح. ويخيل إلى الإنسان كأنما تراص شعراء القبائل بجانب فرسانها وشجعانها في صفوف، وقد أخذ كل منهم يريش سهام هجائه ويرمي بها أعداءه من الأشراف والقبائل، وكل يحاول أن يكون سهمه أنفذ السهام وأصماها؛ حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة. وكانوا ينتهزون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ، فينشدون أهاجيهم لتذيع، وليلحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار .

ثانيا المديـــح:

وقد مدح الشاعر الجاهلي بفضائل ثابتة كالشجاعة والكرم والحلم ورجاحة العقل ورفعة النسب وكلها ترسم الصورة الخلقية المثلى للإنسان في رؤياه، وكانوا الشعراء كثيرًا ما يمدحون القبيلة التي يجدون فيها كرم الجوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم . وكان يقدّم لقصائده في المديح بوصف الرحلة ومشاق الطريق وما أصاب ناقته من الجهد ليضمن مزيدًا من بذل ممدوحه ، كان الشاعر يتخذ من المدح المبالغ فيه باستثناء زهير بن أبي سُلمى مثلا . حافزًا للممدوح على المزيد من العطاء وكان للغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة دور كبير في تحفيز الشعراء على مديح أمرائهم. ومن أشهر المداحين من شعراء الجاهلية النابغة الذبياني الذي اشتهر بمدح النعمان بن المنذر. وكما يقول أبو عمرو بن العلاء وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجدّه ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب؛ فهم يقدمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحيهم. واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان بن ثابت أما زهير فاختص بأشراف قومه، وأما حسان فاختص بالغساسنة .

ثالثا الاعتذار:

نشأ نشوءًا من المديح وفي ظلاله، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء. ومما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذي الإصبع العُدواني والمتلمس

رابعا الفخر والحماسة:

عَرَف العصر الجاهليُّ الفخر غرضًا من أغراض الشعر، وكان هذا الفخر نوعين: أحدهما فردي حيث يشيد الشاعر بنفسه وفضائله، والآخر كان فخرًا جماعيًا أشاد الشاعر فيه بقبيلته. وكانت الفضائل التي مدح بها الشاعر هي نفسها التي افتخر بها من شجاعة وكرم ونسب رفيع وهو أهم موضوع استنفد قصائدهم؛ فقد سعرتهم الحروب، وأمدها شعراؤهم بوقود جزل من التغني ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت؛ فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمي مجموعته من أشعارهم وأشعار مَن خلفوهم باسم الحماسة؛ فهي التي تستنفد أشعارهم وقصيدهم، وهي ديوانهم الذي يسطر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء. واقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان، وستجد الشارع فيه يتحدث دائمًا عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضييق الخناق على أعدائها وهو يعدد أيامها مشيدًا بحسبها ونسبها وصبرها في الملمَّات وكرمها في الجدب وحمايتها للجار وإغاثتها للملهوف. ومن روائعهم في هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المعلمة المشهورة من مثل قوله:

متـــى ننقـــل إلـــى قـــوم رَحانـــا يكونـــوا فـــي اللّقـــاء لهـــا طَحِينـــا

يكـــون ثِفالُهـــا شـــرقيَّ نجـــدٍ ولهوتهـــا قضـــاعة أجمعينـــا

تطـــاعن مـــا تراخـــى النـــاس عنـــا ونضـــرب بالســـيوف إذا غُشـــينا

بِسُـــمْرٍ مـــن قَنَـــا الخَطِّـــيِّ لـــدن ذوابـــل أو ببـــيض يعتلينـــا

نشـــق بهـــا رءوس القـــوم شـــقًّا ونخليهـــا الرقـــاب فتختلينـــا

كـــأن جمـــاجم الأبطـــال فيهـــا وســـوق بالأمـــاعز يرتمينـــا

ورثنـــا المجـــد قـــد علمـــت معـــد تطـــاعن دونـــه حتـــى يبينـــا

ونحـــن إذا عمـــاد الحـــي خـــرت علـــى الأَحفـــاض نمنـــع مـــن يلينـــا

نجـــذُّ رءوســـهم فـــي غيـــر وتـــر فمـــا يـــدرون مـــاذا يتقونـــا

كـــأن ســـيوفنا فينـــا وفـــيهم مخـــاريق بأيـــدي لاعبينـــا

كـــأن ثيابنـــا منـــا ومـــنهم خضـــبن بـــأرجوان أو طلينـــا

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذي يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها في نجد شرقيها وغربيها؛ فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب، ويصف أسلحتهم الذي يذيقون بها أعداءهم كئوس الموت المرة. ومدَّ فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رءوس شجعانها، واعترف لأعدائه بشجاعتهم؛ فالسيوف في أيديهم وأيدي أعدائهم كأنها مخاريق بأيدي لاعبين، وهم يقتلون فيهم، كما يُقتل من قومه فثيابهم جميعًا ملطخة بالدماء. وليس عمرو وحده الذي يصف خصومه بالشجاعة؛ فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف، وتسمى قصائدهم المنصفة .

خامسا الرثـــاء:

عرف الرثاء منذ العصر الجاهلي، وكان يتميز بما تميزت به سائر الأغراض من حيث الصدق وعفوية الأداء. وقد رثى شعراء الجاهلية قتلاهم في الحروب، كما رثوا موتاهم في غير الحروب

وكانوا يرثون قتلاهم بذكر مناقبهم وبالبكاء الحار عليهم حثًا للقبيلة على الثأر. كما أن المرأة أدّت دورًا كبيرًا في رثاء قتلى الحروب، ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من "التعديد" فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبها ، وتذكر المصادر أن الخنساء في الجاهلية كانت تخرج إلى سوق عُكاظ فتندب أخويها صخرًا ومعاوية، وكانت تحاكيها هند بنت عتبة راثية أباها، ولم تكن الخنساء ولا مثيلاتها من البواكي يقنعن بيوم أو أيام في رثاء موتاهنَّ، بل كنّ يمكثن الأعوام باكيات راثيات، ولا شك أن النساء كنَّ يدعون بدعوى الجاهلية سواء في أشعارهن أم في بكائهن وعويلهن ويقال: إنهن كن يحلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود، وكن يصنعن ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام. ولعل في حلق رءوسهن ما يجمع بينهن وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن في لحده. وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن في فقيدهم؛ فتلك التعويذات أصبحت وخاصة عند نسائهم بكاء ونواحًا وندبًا حارًّا. ونجد بجانب هذا الندب ضربًا من الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته، وما نشك في أن الصورة القديمة لهذا التأبين هي تلك النقوش التي عثروا عليها في أنحاء مختلفة من الجزيرة، وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم تمجيدًا لذكراهم وتخليدًا لها وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع الذي نجده عند الجاهليين. وقد ذهبوا يضمون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى الصبر على الشدائد؛ فالموت كأس دائرة على الجميع، ولا مردّ لحكم القضاء. وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء؛ فكن يشققن جيبوبهن عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتمًا من العويل والبكاء، ومن خير ما يصور ذلك كتاب "مراثي شواعر العرب" للويس شيخو، وسابقتهن التي لا تنازَعُ هي الخنساء؛ فقد قُتل

أخوها معاوية في بعض المعارك، فارتفع نشيجها وبكاؤها عليه، وقتل أيضًا أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة، ومن رائع ما ندبت به صخرًا قولها :

قــذىً بعينـــك أم بالعـــين عُـــوَّار — أم ذرَّفت مُذْ خلت مـن أهلهـا الـدارُ
كـــأن عينـــي لـــذكراه إذا خطـــرت — فـيضٌ يسـيل علـى الخدَّيــن مــدرار
فـالعين تبكـي علـى صـخر وحـق لهـا — ودونـــه مـــن جديـــد الأرض أســـتار
تبكـي خنـاس ومـا تنفـك مـا عمـرت — لهـــا عليـــه رنـــين وهـــي مقتـــار
بكـــاءَ والهـــةٍ ضـــلت أليفتَهـــا — لهـــا حنينـــان: إصـــغار وإكبـــار
ترعَــى إذا نسـيت حتــى إذا ذكـرت — فإنمـــــا هــــي إقبـــال وإدبـــار
وإن صـــخرًا لتـــأتم الهـــداة بـــه — كأنــــه علــــم فــــي رأســــه نــــار

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحس داعي الموت ندب نفسه ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن، ثم لحده ودفنه، وتنسَبُ للممزق العبدي أو ليزيد بن الخذاق قطعة يصور فيها هذا المصير الذي ينتظره، يقول فيها

هـل للفتـى مـن بنـات الـدهر مـن — أم هـل لـه مـن حمـام المـوت مـن راقِ
قـد رجَّلـوني ومـا رجلـت مـن شـعث — وألبســـوني ثيابًـــا غيـــر أخـــلاق
وأرســلوا فتيــة مــن خيــرهم حســبًا — ليســندوا فــي ضــريح التــرب أطبــاقي

وكانوا يكثرون من تأبين من يموتون منهم في ميادين الحرب، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعًا لخصومهم وفخرًا بعشيرتهم ومآثرها وأيامها، ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب؛ بل فسحوا في مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم، فخرًا بهم واعتزازًا بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم، وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضًا عطرة، ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حجر لفضالة بن كَلَدة الأسدي، وفيها يقول

أَيَّتُهـــا الـــنفسُ أَجْمِلـــي جَزَعَـــا إن الـــذي تحـــذرين قـــد وقعـــا

إن الـــذي جمـــع الســـماحة والنَّـــ ـــجدةَ والحـــزمَ والقـــوى جُمَعـــا

الألمعـــيّ الـــذي يظـــن لـــك الـــ ـــظن كـــأن قـــد رأى وقـــد ســـمعا

المخلـــفَ المتلـــفَ المـــرزَّأَ لـــم يُمتـــع بضـــعف ولـــم يمـــت طِبعَـــا

أودى وهـــل تنفـــع الإشـــاحةُ مـــن شـــيء لمـــن قـــد يحـــاول البِـــدَعَا

وعلـى هـذا النحـو ألـمَّ الشـاعر الجـاهلي بجوانـب الرثـاء الثلاثـة مـن النـدب والتـأبين والعـزاء .

سادسا الغـــزل:

عُرف الغزل منذ العصر الجاهليّ، ويدلنا تراث هذا العصر من شعر الغزل على رقة مشاعرهم كما يسجل لنا معاييرهم في جمال المرأة. ومن أشهر المتغزّلين في هذا العصر عُروة بن حزام العُذريّ الذي أحبَّ عَفْراء ابنـة عمـه، ومالـك بـن الصمصـامة الذي أحبَّ جنـوب بنـت محصـن الجعـديّ ومسافر بن أبي عمرو الذي أحب هندًا بنت عُتبة. على أن قصة عنترة وابنة عمه عبلة أشهر من أن تذكر وقد وجدنا الغزل موزعًا بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا في قصائدهم هي بكاء الديار القديمة التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع، ومر بنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خذام، وربما كان في ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلهم يسبق في قدمه الأجزاء الأخرى فيه. ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها، ولا يكادون يتركون شيئًا فيها دون وصف له؛ إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها. وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها وهي مغامرات تحوَّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصوا عن حب المرقش

الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المنخل اليشكري للمتجردة زوج النعمان، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعي وهي تجري على هذا النمط قال فيها :

ولقـــد دخلـــت علـــى الفتـــا ... ة الخـــدر فـــي اليـــوم المطيـــر
الكاعـــــب الحســـــناء تـــــر ... فـــل فـــي الـــدمقس وفـــي الحريـــر
فـــــــــدفعتها فتـــــــــدافعت ... مشـــي القطـــاة إلـــى الغـــدير
لَثَمْتُهـــــــــا فتنفســـــــــت ... كتـــــنفس الظبـــــي البهيـــــر
فـــــدنت وقالـــــت يـــــا مُنَـــــ ... ـــخل مـــا بجســـمك مـــن حـــرور
مـــا شـــفَّ جســـمي غيـــر حُبِّـــ ... ـــك فاهـــدئي عنـــي وســـيري

ووقف الشعراء طويلًا يصورون حبهم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكلة قول بشر بن أبي خازم

فظلـت مـن فـرط الصـبابة والهـوى ... طَرِفًـا فـؤادُك مثـل فعـل الأيهـم

وكانت ذكراها لا تزال تلم بهم، ومن ثم أكثروا الحديث عن طيفها وما يثيره في أنفسهم من تباريح الحب ولهم في وصف هذه الذكرى وما تصنع بهم شعر كثير يصفون فيه صبابتهم ،وكانوا كثيرًا ما يصفون ظعنُها، وهي ترحل في الجزيرة من موضع إلى موضع، وكان الرحلة أساسًا في حياتهم فهم يرحلون وراء منابت الغيث، وينتقلون معها حيث حلت، وفي معلقة زهير وصف طويل لهذه الظعن وربما فاقه في هذا الوصف المثقب العبدي في قصيدته

أفـــاطمُ قبـــل بينـــك متعينـــي ... ومنعـــك مـــا ســـألتِ كـــأن تبينـــي
فـــإني لـــو تخـــالفني شِـــمالي ... خلاَفـــك مـــا وصـــلتُ بهـــا يَمينـــي

وقد مضى يصف ظعنها ويتتبع سيرها وما تصنع هي وصواحبها في قلوب الرجال وهن يظهرن بكلَّة ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهن على ظهورهن

سابعا الـــــوصــف :

ويراد به وصف الشاعر الطبيعة، أو مشهدًا من المشاهد الحية أو الجامدة، أو كائنًا من الكائنات كوصف امرئ القيس لفرسه، أو مثل لوحات ذي الرُّمَّة الشهيرة في الشعر العربي، أو وصف النابغة لليل وقد امتلأت نفسه بالرعب من النعمان ملك الحيرة. وفي العصر الجاهلي زخرت المعلقات بالوصف، كما اشتهر شعراء بوصف الخيل خاصة، منهم طُفيل الغنوي والنابغة الجَعْدي كما اشتهر الشَمّاخ بن ضِرار، وهو مخضرم، بوصف الحُمُر، والقوس، واشتهر أوس بن حجر بوصف أسلحة الحرب. والوصف في الشعر الجاهلي يتَّسم بالبساطة، والحس الفني الذي يجمع بين الرقة والعفوية والواقع أن الشاعر الجاهلي وصَّاف مصور. وقد وصف الشعراء كل شيء وقعت عليه أعينهم في صحرائهم وفي العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيبهم؛ إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم في الصحراء فيتحدثون عن قطَعهم للمفاوز البعيدة، فوق إبلهم، ويأخذون في وصفها وصفًا مسهبًا على نحو ما هو معروف عن طرفة في وصفه لناقته بمعلقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضوًا ولا جزءًا دون وصف وتصوير.

والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو بيدي السابح، وصوتها صوت القصب وخفافها بالمطارق وقد يشبهونها بالجبل ويشبهون صدرها بالطريق وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش، وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين

كـلاب الصـيد ، يقـول الجـاحظ: "ومـن عـادة الشـعراء إذا كـان الشـعر مرئيـة أو موعظـة أن تكـون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحًا وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هي المقتلوة. ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها؛ ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها. وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم" . وكأنهم كانوا يتخذون قتل الكلاب في المديح رمزًا لأعداء الممدوح، وكانوا فعلًا يشبهونهم بالكلاب وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز، كما أكثروا من وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار ولامرئ القيس قطعة بديعـــــة بمعلقتـــــه يصـــــف فيهـــــا فرســـــه الـــــذي اتخـــــذه للصـــــيد

ثامنا الحكـــــمة:

شعر الحكمة هو ذلك الشعر الذي تضمن خلاصة مالدى الشعراء من تجارب العقل والحياةويعد زهير أشهر شعراء الحكمة في العصر الجاهلي، ومعلقته الشهيرة مزيج من المديح لهرم بن سنان والحارث بن عوف، ووصف أهوال الحروب ومفاسدها، رغبة منه في إقناع المتحاربين بالمصالحة والسلام، في أسلوب من الحكمة التي تمنح معلقته بعدًا إنسانيًا رفيعًا. ولم تخل حكمة شعراء الجاهلية من تسجيل أفكار العرب في هذه الحقبة وتصوير مثلهم وتجارب ولعلقمة بن عبدة أبيات في الوصف يقول فيها :

الحمـــدُ لا يُشـــتَرى إلا لـــه ثَمَـــنٌ ... ممـــا يَضِـــنُّ بـــه الأَقـــوامُ معلـــومُ
والجـــود نافيـــةٌ للمـــال مَهْلَكَـــةٌ ... والبخـــلُ بـــاقٍ لأَهليـــه ومـــذموم
وكـــل حِصْـــن وإن طالـــت ســـلامته ... علـــى دعائمـــه لا بُـــدّ مهـــدوم

خصائص الشعر الجاهلي

أولا الخصائص المعنوية

1- تخلو من المبالغة الممقوتة

ولعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال ، فهي خالية من الغلو والمغالاة، والمبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعقولة

2- بعيدة عن التعقيد

نجد شعرهم وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياتهم وبيئتهم برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها .إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموِّهها أو طلاء يزيفها. إذ يقدم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة؛ فهي حقائق تُسْرَدُ سردًا وقلما شابها الخيال، إلا ليزيدها إمعانًا في الوضوح والجلاء.

3- منتزعة من البيئة البدوية

فالشاعر الجاهلي لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب؛ فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ولا في أعماق الأشياء الحسية. وتتضح هذه النزعة في خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادي، ولنرجع مثلا إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبهها بالشمس والبدر والبيضة والدرة! والدمية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأُقحوان وبنانها بالعَنم وثغرها بالبللور وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات

والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثيب وساقها بالبُردية أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر وبالرمح والسيف وبالبقرة والتيس والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحلوعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعر الجاهلي جميعه فالشاعر يستقي أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله. وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئًا أدقوا النظر في أجزائه وفصلوا الحديث فيها تفصيلًا شديدًا، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة، وإنما يصنع تمثالًا فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة. تَبَدو في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد، وجنَى عليهم ذلك ضيق واضح في معانيهم؛ غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها

4- غالباً تقوم على وحدة البيت لا وحدة القصيدة

غلب على شعرهم الإيجاز، فالشاعر لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون. ولعل هذا هو الذي جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها. وتتألف القصيدة من طائفة الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتفي فيها كل بيت غالبًا بنفسه؛ غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادرًا.

5- الاستطراد

أن القصيدة الطويلة لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر؛ بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هي كل روابطها، أما بعد ذلك فهي مفككة؛ لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة

بعينها أو عند موضوع بعينه. ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس في الشعر الجاهلي، ومن حقنا أن نعطيه اسمًا جديدًا مشتقًا من حياته، وهو التنقل السريع .

الخصائص اللفظية

1- تميل إلى الخشونة والفخامة خالية من الأخطاء، والألفاظ الأعجميّة لأنّهم لم يختلطوا بغيرهم

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة؛ فالتراكيب تامة ولها دائمًا رصيد من المدلولات تعبر عنه، وهي في الأكثر مدلولات حسية، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز. وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيًّا لغويًّا، وهو رقي لم يحدث عفوًا فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة؛فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدي معانيها بدون اضطراب.

2- ظاهرة التكرار

وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقًا مرسومًا، يسيرون فيه كما تسير قوافلهم سيرًا رتيبًا، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعورًا دقيقًا، مما جعل زهيرًا يقول بيته المأثور إن صح أنه له

مَـــا أَرَانَـــا نَقُـــوْلُ إلَّا معـــارًا أو مُعـــادًا مـــن لفظنـــا مكـــرورا

فهو يشعر أنهم يبدءون ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة، ويجرون على طراز واحد طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب.

3- صقل وتجويد وتعديل وتنقيح في اللفظ والصياغة

فكل شاعر ينقح فيه ويهذب ويصفي جهده حتى يثبت براعته. ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادرًا؛ فاتجهوا إلى قوالب التعبير، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون، وبالغوا في ذلك، حتى كان منهم من يخرج قصيدته في عام كامل، يردد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية في بنائها وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تصنع دفعة واحدة؛ بل كانت تصنع على دفعات، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع في طائفة منها، ولعله أيضًا السبب في تَفْككها واختلاف عواطفها فقد كان الشاعر يصنعها في أزمنة مختلفة. وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يلزمه من رواته؛ فكانوا يروونها بصورة، وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدِّل في بعض أبياتِها، يبدل كلمة بكلمة، وقد يحذف بيتًا.

4- رقة وعذوبة الموسيقى

أن الصيغة في الشعر صيغة موسيقية، فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى وما زالوا يصفون في نغم القصيدة، حتى استوى استواء كاملًا، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية. وحقًّا إن اللفظ في جمهوره جزل؛ ولكنها جزالة تستوفي حظوظًا من الجمال الفني؛ ولذلك ظلت ماثلة في شعرنا العربي عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة.

5- استعانوا بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم؛ لغرض التأثير في سامعيهم، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية . التشبيه والاستعارة والطباق والجناس

أ- التشبيه

وأكثرها دورانًا في أشعارهم ؛ فلم يصفوا شيئًا إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي فالفرس مثلًا يشبه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها

ب- الاستعارة

وبجانب التشبيهات الكثيرة التي تلقانا في شعرهم نجد الاستعارة بفرعيها من التصريحية والمكنية وهي مبثوثة في أقدام أشعارهم. وفي شعرهم كثير من الاستعارات ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات في دراستنا لشعرائهم المبرزين.

ج- الطباق والجناس

وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التي شاعت في الشعر العباسي وكثُر استخدامها فيه حتي اتخذها بعض الشعراء مذهبًا يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها، ونقصد الطباق والجناس، فلهما أصول في الجاهلية، ونحن نجدهما عند امرئ القيس في وصفه لفرسه إذ يقول:

مِكَـــرٍّ مِفَـــرٍّ مُقبِـــلٍ مُـــدبِرٍ مَعًـــا كجُلمـودِ صَـخرٍ حَطَّـهُ السَـيلُ مِـن عَـلِ

كُمَيـتٍ يَـزِلُّ اللِبـدُ عَـن حـالِ مَتنِـهِ كَمـــا زَلَّـــتِ الصَـــفواءُ بِـــالمُتَنَزَّلِ

والطباق واضح في البيت الأول ومثله الجناس في البيت الثاني .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد